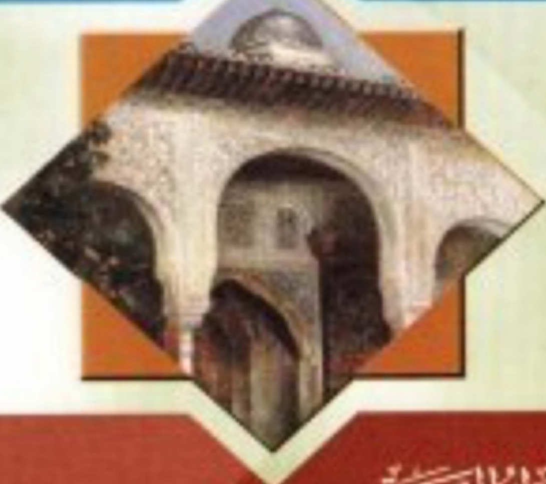


التنازع والتوازن في حياة المسلم

الدكتور
محمد موسى الشريف



دار التربية
دار ابن كثير

التنازع والتوازن

في حياة المسلم

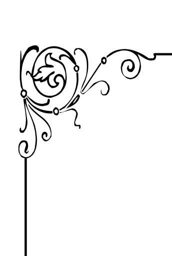
الطبعة السادسة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

التنازع والتوازن

في حياة المسلم

الدكتور

محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله وصلى الله على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد ظهرت ـ ولله الحمد ـ الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وفيها زيادات وتصحيحات.

ولعل أهم الزيادات مبحث (التفرغ) الذي كنت أرغب إفراده في رسالة، ولكني رأيت بعد ذلك أن إلحاقه بهذا الكتاب أولى لقوة ارتباطه بمباحثه، وترتب بعضها عليه.

ومن الزيادات كذلك (مطلب في الترويح والاستجمام) وتبعتها ـ كذلك ـ الطبعة الثالثة.

وجاءت الطبعة الرابعة، وفيها زيادة أضيفت إلى المبحث الثالث منه.

وهذه هي الطبعة الخامسة ـ ولله الحمد ـ من هذا الكتاب، وفيها الإضافات التالية:

١ـ ترجمة موجزة للأعلام المذكورين، حيث إن أغلب القراء يحتاجون إلى معرفة شيء عن أولئك الأعلام الذين يقرؤون أقوالهم ويعجبون بفعالهم.

٢ـ بعض الإضافات المكمِّلة للنص من زيادة عبارة، أو فكرة، أو تقسيم.

٣ـ بعض الفهارس العلمية.

هذا وقد كنت كتبت هذا الكتاب قبل ست سنوات، وأنا الآن متيقن أكثر من ذي قبل بصعوبة تحقيق ما أوردته، وأن الشخص الذي يريد المعالي المسرودة في هذه الرسالة عليه أن يبذل جهداً كبيراً، ويتخطى عقبات جساماً ـ بدون مبالغة ـ وإلا راوح مكانه، ولم يأت بشيء ذي بال، فليفزعْ إلى ذي الجلال سائلاً المعونة والإقبال، والتوفيق والتسديد والمباركة في الأقوال والأعمال.

هذا وإن الحمد لله أولاً وآخراً حيث كتب لهذا الكتاب بعض القبول والانتشار، وأسأله سبحانه وتعالى أن يضفي عليه مزيداً من القبول، وينيلني من فضله ما هو مأمول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

د. محمد موسى الشريف

MOHAMMAD-MOUSA@HOTMAIL.COM

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، ودلّه على طريق الخير والرشاد بالإيمان، وأنشأ فيه نوازع كثيرة للخير والطغيان، فأما من هذّب هذه النوازع فهو الفائز الجذلان، وأمّا من أتبع نفسه هواها فهو الخاسر الحيران.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تنقذني يوم العرض، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي لم يخلد إلى الأرض، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وبعد:

إن المسلم ـ اليوم ـ مطالب بإرجاع أمته إلى سابق مجدها وقديم عزِّها، وسبيله إلى ذلك هو إصلاح نفسه، ثم دعوة غيره.

وإصلاح النفس هدف يرجوه كل مسلم ولكن دونه عقبات عظيمة لا سيما في هذا العصر، وأعظم هذه العقبات هي ما كان من داخل الشخص نفسه؛ إذ إن هناك عقبات حسيّة ومعنويّة، ولكن أعظم العقبات قاطبة هو ما يصادم الشخص داخل نفسه، فالنفس أمّارة بالسوء، وفيها كبْر وحسد وحقد وغلّ وبغضاء ورياء وشقاق ونفاق إلى غير ذلك من المهلكات، فمن وفقه الله للنجاة من هذه الآفات وأمثالها

فهو في خير عظيم، وقد تكفّلت كتب كثيرة بشرح سبل السلام من هذه المهلكات شرحاً وافياً كافياً.

ثم إن المسلم إذا خلّص دواخله من كل هذا فجأتْه مجموعة من المطالبات النفسية الداخلية ـ وهي ما يمكن أن يسمى «النوازع» ـ أقلقته وعصفت به، ويمكن في كثير من الأحوال أن يقوده عدم تحقيقها إلى اليأس والإحباط إن لم تدركه رحمة مولاه وفضله.

وأعني بهذه النوازع ـ وسيأتي للكلمة وضوابطها شرح مفصَّل، إن شاء الله تعالى ـ هو ما تنزع إليه النفس وترغبه وتشتهيه.

فالمسلم الملتزم بدينه يحب أن يكون داعية إلى الله تعالى، وكذلك يرغب أن يكون قويّ الإيمان، راسخ اليقين. وهو يحب أن يكون من العابدين الزاهدين.

وكذلك يستهويه المال الصالح.

وتدفعه نفسه إلى أن يكون من رجال الشهرة المعروفين المتصدرين.
وكذلك يحنّ المسلم إلى أن يكون ممن رزقه الله تعالى العلم الشرعي؛ فأصبح من علماء الأمّة العاملين.

وهو من الراغبين في الثقافة الفكرية والواقعية، حتى يكون مرشداً ومفتياً من مُفتي الشباب والصحوة.

وهو ممّن تَتُوقُ نفسه إلى الجهاد والذَّوْد عن أعراض المسلمين، ويكاد يتمزق شوقاً عندما تلامس أذنَه نداءاتُ الجهاد وأخبار البطولات.

وهو ممن لا يُحب أن يُرى مقصِّراً في حقوق الأهل والأرحام والأحباب.

وهو ـ ولا بد ـ ممن يرغب أن يرى أولاده وبناته من عباد الله الصالحين الداعين المجاهدين، فيربيهم تربية إسلامية حسنة.

فهذه عشرة نوازع في نفس الإنسان المسلم يرغب كل عاقل لبيب أن يجمعها، ولكن هيهات أن تجتمع له إلا بتوفيق عظيم.

قال الإمام ابن الجوزي(١) رحمه الله تعالى:

«ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الأفضل، والجمع بين العلوم والأعمال ومعاملات القلوب، ويتفاوت أرباب هذا الحال»(٢).

ولشرح هذه النوازع والتوفيق بين بعضها البعض والتوازن والترجيح بينها جاء هذا البحث، الذي أحسبه جديداً يضيف شيئاً إلى المكتبة الإسلامية، ويشرح أموراً يجدها كل مسلم ملتزم بهذا الدين داعية ـ على وجه الخصوص ـ في نفسه حال سيره في دروب هذه الحياة.

---

(١) الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد سنة ٥١٠ ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، كان رأساً في التذكير والوعظ بلا مدافعة، صنف مصنفات كثيرة، له حكم وأقوال كثيرة، توفي ببغداد سنة ٥٩٧، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥ـ٣٨٤.

(٢) «صيد الخاطر»: ٢٦٢.

المبحث الأول
النوازع وأهمية التوفيق بينها

معنى التوازن والنوازع:

التوازن لغةً:

قال ابن فارس[(١)]: «الواو والزاي والنون: بناء يدل على تعديل واستقامة، ووَزِينُ الرأي: معتدله. وهو راجح الوزن إذا نسبوه إلى رجاحة الرأي وشدة العقل»[(٢)].

أما اصطلاحاً فيمكن تعريفه بأنه: «إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص، وهو ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها.

وهو الحكمة المنوّه بها في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٣)].

---

(١) الشيخ الإمام أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. ولد سنة ٣٢٩. وكان مقيماً بهمذان والريّ. له تصانيف كثيرة في اللغة والأصول والفقه والقرآن، وله شعر حسن. توفي بالري سنة ٣٩٥ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ٧/ ٢٧٨، و«الأعلام»: ١/ ١٩٣.

(٢) «معجم مقاييس اللغة»: ٦/ ١٠٧.

(٣) «بصائر تربوية»: ٢٥. والآية من سورة البقرة ورقمها: [٢٦٩].

وأما التنازع فقد جاء في «المصباح المنير» في مادة «ن ز ع»:

«نازعت النفسُ إلى الشيء نُزُوعاً ونزاعاً: اشتاقت، وبعير وناقة نازع: حَنّت إلى أوطانها ومرعاها».

وجاء في «لسان العرب» في المادة نفسها:

«نازعتني نفسي إلى هواها نزاعاً: غالبتني، ويقال للإنسان إذا هَوَى شيئاً ونازعته نفسه إليه: هو ينزع إليه نزاعاً.

والتنازع: التجاذب، ومنه حديث: «مالي أنازَعُ القرآن»[(١)] أي أجاذب في قراءته، وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه، فنازعه قراءته، فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة في الصلاة خلفه».

فالتنازع تدور معانيه على التجاذب والحنين والمغالبة.

والنوازع المذكورة في هذا البحث هي الأمور التي يشتاقها الإنسان ويحنّ إليها، وتحصل المجاذبة فيها بينه وبين نفسه لتحقيقها وتحصيلها.

ولا يخفى على اللبيب العاقل أن كل إنسان ينزع إلى ما تدفعه همته إليه، فمن كان عالي الهمة شريف النفس نزع إلى المعالي، ومن كان ممن جذبته الدنيا إليها وكبّلته بحبها نزع إلى ما يزيده حباً فيها وتعلقاً بها، والبون بين الفريقين شاسع.

ولا شك أن حديثي موجه للفريق الأول؛ لأنه هو الذي تتنازعه

(١) أخرجه الترمذي في باب ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وقد أخرجه كذلك مالك في الموطأ والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد.

فضائل كثيرة، ويمكث زماناً يحاول أن يوفق بينها، أو يختار منها ما وفقه الله إليه.

وقد رأيت أن أتكلم عن نوازع خمسة أظن أنها تستوعب وتتضمن باقي النوازع التي ذكرتها في المقدمة، وهذه الخمسة هي:

١ـ طلب العلم الشرعي.

٢ـ كثرة العبادة وإحسانها.

٣ـ الدعوة إلى الله تعالى.

٤ـ الجهاد في سبيل الله.

٥ـ طلب المال الصالح.

وهي إن حاكت في صدر المسلم كلها أو بعضها منعته الرقاد، وأورثته السهاد، فلا يعود يطيب له العيش حتى يُحكم أمره فيها، ويختار منها ما يوفقه الله تعالى إليه، وقد يمنّ الله عليه بجمعها أو بجمع غالبها، فيكون إماماً قدوة كما سأبين، إن شاء الله تعالى.

والجامع بين هذه النوازع المختلفة بطريقة محكمة هو الذي يملي على التاريخ ما يكتبه، وهو الذي يجعله الله تعالى ملجأ للناس وملاذاً لهم حال الخَطْب المُدْلهمّ والحادث الجَلل، وهو الذي إن عاش كان رمزاً، وإن مات صار حديثاً للأجيال.

أما من جدّ واجتهد في جانب أو جانبين من الفضائل، واقتصر على ذلك هو في حال حسنة، لكنها مفضولة.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى موضحاً كيفية هذا التنازع بين الفضائل المتنوعة: «نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجباً، وذلك أنني

أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه؛ لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فن، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه.. فلا أرى الرضا بنقصان العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمّة.

ثم إني أروم ـ نهايةً ـ العمل بالعلم، فأتُوق إلى ورع بِشْر[(١)]، وزهادة معروف[(٢)]، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيدٌ.

ثم إني أروم الغنَى عن الخلق، وأستشرف الإفضال عليهم، والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وقَبول المنن[(٣)] مما تأباه الهمة العالية.

ثم إني أتُوق إلى طلب الأولاد، كما أتُوق إلى تحقيق التصانيف لبقاء الخَلَفَيْن[(٤)] نائبيْن عني بعد التلف، وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرّد.

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثمّ لو حصل فرّق جمع الهمة...

وكل ذلك جَمْعٌ بين أضداد... فوا قلقي من طلب قيام الليل وتحقيق الورع مع إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف... وواأسفي على ما

(١) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن. الإمام المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر المروزيّ ثم البغداديّ، المشهور بـ (الحافي). ولد سنة ١٥٢ وكان رأساً في الورع والإخلاص، وله حكم جميلة وكلام رائق. توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٢٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٤٦٩ـ٤٧٧.

(٢) الكرخي، علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، توفي سنة ٢٠٠، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ٣٣٩ ـ ٣٤٥.

(٣) أي العطايا المالية.

(٤) أي الكتب والأولاد.

يفوتني من المناجاة بالخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم، ويا كدر الورع مع طلب لا بد منه للعائلة، غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعلّ تهذيبي في تعذيبي، وإن بلغ همي مراده وإلا فنيّة المؤمن خير من عمله»[١].

وكلام الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى يتردد في صدور كثير من الصالحين، والغالب أن أكثرهم لا يجد سبيلاً للجمع بين تلك الأمور المذكورات على وجه حسن.

وللتدليل على أهمية هذا الأمر ـ أمر التوازن بين النوازع المختلفة ـ فإني أذكر حال واحد من إخواني الصالحين، فقد كان داعية نشيطاً، ولكنه كان يعاني من عدم استطاعته التوفيقَ والتوازن بين نوازعه، فقد كان يقوم الليل ويكثر من التعبد أياماً كثيرة، حتى إذا فطن أنه قد قصّر في حق الدعوة ترك التعبد وانغمس في العمل الدعويّ بنشاط عظيم، ثم إذا فطن أنه قد قصّر في حقوق أهله وأقاربه ترك كل ما مضى وجعل يهتم بأهله وأبنائه، فنصحته وبعضُ إخواني بالاتزان فلم ينتصح، فنتج عن ذلك أنه ترك الالتزام كلية بعد شعوره بالضعف وعدم القدرة على التوفيق، ثم منّ الله عليه بالتوبة والرجوع والحمد لله، نعم هذا مرض نادر، ولكنه يحدث في صفوف الدعاة بدرجات مختلفة الحدة، لعل هذه الحالة أشدها، عافاني الله وإياكم.

وحال عرضي لهذه النوازع سوف أذكر أموراً تضبطها، وأقوالاً للسلف حولها، وأذكر أيضاً كيفية تحقيق التوازن فيها خاصة، وكيفية التوفيق بينها وبين بعض النوازع الأخرى، وقد أرجئ ذكر تفصيل بعض ذلك إلى المبحث الأخير إن شاء الله تعالى.

---

(١) «صيد الخاطر»: ٢١٦ـ٢١٧.

المبحث الثاني
النوازع: ذكرها وبيانها

النازع الأول: طلب العلم الشرعي:

هذا النازع قويّ متجذِّر في نفوس كثير من الملتزمين بالإسلام، وذلك لما ورد من نصوص كثيرة في الكتاب والسنة وكلام أئمة السلف تنوِّه بطلب العلم، وتذكر عظم أجره وفضله.

والعلماء العاملون سبب لهداية الناس، وهم الذين يجدّدون الدين وينقّونه ممّا عَلق به من البدع والمخالفات، ويصححون مفاهيم العامّة وآراءهم، وهم الذين يُستشفى بحديثهم، ويتنزل نصر الله بسببهم.

وإذا علم الأخ المسلم فضل العلم والعلماء دعته نفسه ليكون منهم فيفوز بما فازوا به من الأجر والفضل، ولكنه لا بد له أن يلتفت إلى جملة من التحذيرات والتنبيهات في هذا، وهي:

١ـ لا يحسن به ولا يجمل أن يترك دراسته للفنون والصناعات ـ إن كان من المتخصصين فيها والدارسين لها ـ ليطلب العلم الشرعي الكفائيّ، فإن هذه الفنون والصِّناعات ـ من طب وهندسة وفيزياء وكيمياء وغيرها ـ سببٌ من أسباب سعادة الأمة وفوزها على أعدائها المتربصين بها، وترك المسلمين لها يزيدهم وهناً على وهن، وقد

يصيب التاركَ لهذه الفنون ـ ممن تعينت عليه ـ إثمٌ؛ لأنها ـ اليوم ـ من فروض الكفاية ومن أصول الرِّيادة.

٢ـ لم تكن للصناعات والفنون في عهد السلف هذه المنزلة التي لها اليوم، فلا يصح أن نقارن ما عليه السلف بما نحن عليه، فقوة الأمم ـ اليوم ـ تقاس بما هي عليه من التقدم التِّقَني والعلميّ.

٣ـ كان السلف حريصين على هذه الفنون والصناعات ـ رغم بدائيتها في عصرهم ـ فكثير من علمائهم اشتُقت ألقابهم من الصناعات التي يزاولونها، فهناك القفّال، والشاشيّ، والحدّاد، والزجّاج، والفرّاء، والخيّاط، والسرّاج، والحذّاء، وغيرهم من علماء السلف وأعلامهم.

٤ـ قد عاب بعض السلف تضييع بعض الفنون والصناعات، فهذا الإمام الشافعي[١] يقول فيما نقله عنه الربيع[٢]: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطبِّ إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه»[٣].

وقال حَرْملة[٤]: «كان الشافعي يتلهّف على ما ضيع المسلمون من

(١) محمد بن إدريس الشافعي الإمام المشهور، وأحد أصحاب المذاهب الأربعة المتبوعة. كان ذا ذكاء نادر، وصاحب لغة مستقيمة، لم يؤثر عنه لحن قط. توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٤.

(٢) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المراديّ، أبو محمد المصريّ المؤذن، صاحب الإمام الشافعي، ثقة، مات سنة ٢٧٠ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٠٦.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٣٨.

(٤) أبو حفص حرملة بن يحيى بن عبد الله التُجيبيّ المصريّ الحافظ، صاحب الإمام الشافعيّ. ولد سنة ١٦٦ وتوفي ٢٤٣. وله بعض المصنفات. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/ ٣٣٤.

الطب ويقول: ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى»[١].

يقول هذا في زمانه فكيف في زماننا؟!

٥ـ قد سَهُل عند بعض السلف الجمع بين الصناعات والفنون وبين طلب العلم الشرعيّ، ولكنّا اليوم يصعب علينا بل قد يعسُر فعل هذا، فطلبك للعلم الشرعيّ من مظانّه يعني أنك لابد أن تلتحق بكلية من الكليات الشرعية أو تطلب العلم على شيخ، والأوّل صعب المنال إن كان الشخص مشغولاً بفنه وبصناعته، والثاني من أصعب الأمور؛ إذ هات لي شيخاً يصبر على تدريس الطالب أوّليات العلوم ومبادئها، ثم يتدرج معه حتى يكمل ويفقه، فالمشايخ ـ اليوم ـ يعتذرون لطالب العلم بالانشغال وعدم القدرة، وبين كثير منهم وبين الشباب فجوة سحيقة؛ إذ لا يوصل إليهم ـ غالباً ـ إلا بشق الأنفس، وإذا وصلت إليهم وجدت من الصِّعاب والعقبات عند الشيخ ما يفقدك الرغبة في طلب العلم عليه.

هذا ما حدا بكثير من الشباب إلى طلب العلم من الكتب والتفقه بغير شيخ، فظنوا أنهم قد علموا، والحقيقة أنه بينهم وبين العلم الصحيح المعتبر مفاوز؛ إذ هم من الفضلاء المطّلعين، ولا يصح وصفهم بأكثر من هذا.

فإذا فهمت الأمور الخمسة الماضية فاعلم أنك إن لم تستطع تحصيل العلم الشرعيّ على الوجه المطلوب؛ فقد يعوضك الله بفن وبصناعة تكفي بها الأمة الذل والهوان، وتكون ممن رُفع عند الله درجات أعلى وأعظم من كثير من العلماء المتقاعسين الذين لم يجمعوا

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٣٨.

بين العلم والعمل: «أين فينا من ساهم ابتداءً في العمل على رقي المسلمين وتحررهم ووحدتهم إسهاماً يجسد ما يريد الإسلام من أبنائه، أن يكونوا عُباداً بررة وصناعاً مهرة، رهباناً بليل وفرساناً بنهار، دعاة إلى إنارة القلوب بالذكر، وسعاة إلى إزالة الظُلمة والجوع والمرض والفقر بالتقدم، يريدهم أن يكونوا هم المتفوقين دوماً في كل علم وصنعة لا عالة على أهل البحوث والدراسات والصناعات، وهم المخترعين المبدعين المبتكرين في كل فن وميدان لا المستوردين المستهلكين دون تقصٍّ أو انتقاء لكل جديد مُبتدَع، وهم الذين يصنعون التاريخ لا الذين يقرؤون أحداثه فحسب»(١).

ومن الأمور التي يجب أن تُعرف أنه لا بد لمزاول صناعة أو مهنة أن يكون له إلمام بالأحكام الشرعيّة اللازمة لصناعته ومهنته وفنه، فالطبيب ـ مثلاً ـ عليه أن يعرف الحكم الشرعيّ في الاطلاع على عورة مرضاه، ومتى يجوز له ذلك ومتى يُحظر عليه، وحكمَ التشريح، وحكم الإجهاض إلخ...

والإعلاميّ عليه أن يعرف ما الذي يحل له بثّه وإذاعته بين الناس وما لا يحل له، وما هي الضوابط الشرعية لبثّ ما يملك من معلومات وأخبار؟ ويجب أن يعرف أيضاً كيفية التثبت من الأخبار شرعاً حتّى يكون في مأمن من تشويش الناس وإقلاقهم أو تطمينهم وتهدئتهم بدون وجه حقٍّ كما يحصل ـ اليوم ـ كثيراً.

وهذا الأمر ينسحب على أصحاب المهن الأخرى من صيدلة وهندسة وتجارة وصناعة إلخ...

---

(١) «الرائد»: ١٢ـ١٣.

ومما هو معلوم أنه يجب على الشخص ـ أيّاً كانت صنعته ـ تعلم فروض العين وفروض الكفاية، ولا يعذر بجهل هذه الأمور، وكذلك يحسن به أن يعرف الضرورات والحاجيات والتحسينات حتى يستطيع فهم واقعه على ما هو عليه.

جوانب التوازن في طلب العلم الشرعي:

ثم إن وفّق الله المسلم لطلب المزيد من العلم فعليه بالآتي ليتوازن في طلبه للعلم، فلا يطغى جانب على جانب:

أولاً: التوازن في طلب العلوم المختلفة وتفضيل بعضها على بعض:

يحتاج طالب العلم إلى النظر والتخير في العلوم ليعلم بأيها يبدأ، وأيها يؤخر.

قال الإمام يحيى بن عمّار السجستاني[١]: «العلوم خمسة: علم هو حياة الدين وهو علم التوحيد، وعلم هو قوت الدين وهو العظة والذكر، وعلم هو دواء الدين وهو الفقه، وعلم هو داء الدين وهو أخبار ما وقع بين السلف، وعلم هو هلاك الدين وهو علم الكلام»[٢].

وقيل للإمام مالك[٣]: «ما تقول في طلب العلم؟ قال: حسن

---

(١) الإمام المحدث الواعظ شيخ سجستان، ونزيل هراة. كان رأساً في التفسير وحسن الموعظة، فصيحاً مفوهاً. توفي سنة ٤٢٢ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٤٨١ ـ ٤٨٣.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٢٣١.

(٣) أحد أئمة أهل السنة الأعلام، وأحد أصحاب المذاهب الأربعة المتبوعة، مالك بن أنس الأصبحيّ. توفي بالمدينة ١٧٩ عن ٨٩ سنة رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٤٨ ـ ١٣٥.

جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه»[١].

وقد يحتاج طالب العلم أن يستشير غيره في هذه القضية المهمة، وعلى طالب التفصيل الرجوع إلى الكتب التي تتحدث عن طرق طلب العلم ومراتب العلوم[٢].

ثانياً: التوازن بين طلب العلم وطلب ترقيق القلب:

وهذا من أهم المهمات، فقد حثّ عليه السلف كثيراً وحذروا من تركه والتفريط فيه؛ لأن الشخص حال انشغاله في طلب العلم قد ينسى هذا الأمر المهم.

فهذا محمد بن عبادة المعافري يحدث أنه وصحبه كانوا عند أبي شريح المعافري[٣] رحمه الله «فكثرت المسائل فقال: قد دَرِنت[٤] قلوبكم، فقوموا إلى خالد بن حميد المَهْري[٥] استقلُّوا[٦] قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق فإنّها تجدد العبادة، وتورث الزهادة،

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٢١.

(٢) من تلك الكتب: «تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ ابن جماعة رحمه الله، و«تعليم المتعلم طرق التعلم» لبرهان الدين الزَّرْنُوجي، و«الحث على طلب العلم» لأبي هلال العسكري، وغيرها.

(٣) الإمام القدوة الربانيّ، أبو شريح المعافريّ الإسكندرانيّ. العابد المتأله الزاهد توفي سنة ١٦٧ وكان من أبناء السبعين رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ١٨٢ـ١٨٤.

(٤) وَسخت.

(٥) الإسكندراني. لا بأس به. توفي سنة ١٦٧ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ١٨٧.

(٦) استبدلوا.

وتجرّ الصداقة، وأقلّوا المسائل فإنها ـ في غير ما نزل ـ تقسي القلب، وتورث العداوة»[١].

وقال شعبة[٢]: «إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة وعن صلة الرحم، فهل أنتم منتهون»[٣].

يعني أن كثرة طلب الحديث قد تؤدي إلى ما ذكره إذا لم يُجمع بينه وبين قراءة الرقائق والمرغبات والمزهِّدات.

وذُكر معروف الكَرخي عند الإمام أحمد، فقيل: قصير العلم، فقال: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف»[٤].

وذكر الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله أمر الموازنة بين العلم وطلب ترقيق القلب فقال: «تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به فإذا هو يقوي القلب قوة يميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه، فإذا تأملت إلى باب المعاملات[٥] قلّ الأمل، ورقّ القلب، وجاءت الدموع، وطابت المناجاة، وغشيت السكينة . . . إلا أن العلم أفضل، وأقوى حجة، وأعلى رتبة، وإن

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٧٩ـ٥٨٠.

(٢) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي ـ بالولاء ـ، أبو بسطام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن، كان أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة، وكان عابداً، مات سنة ١٦٠. انظر «التقريب»: ٢٦٦.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٨١.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧١٤.

(٥) أي: المعاملات القلبية مع الله تبارك وتعالى.

حدث منه ما شكوت منه[١]، والمعاملة ـ وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها ـ فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم، فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع[٢] النفس بأسباب المرقِّقات تلذيعاً لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم»[٣].

وقول الإمام ابن الجوزيّ: فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات... يُعد من القواعد الجامعة المُثلى في هذا الباب.

والناظر اليوم لحال طلبة العلم يعرف أن أكثرهم قد قست قلوبهم وجمدت عيونهم، وانصرفوا عن الرقائق وطلب بعضهم الدنيا بعلمه؛ وذلك لأن القلب ليس متوجهاً إلى الله ولا اللسان بمخلص في دعواه، وهذا من عوامل تأخر النصر، وقلة التوفيق، وندرة البركة في الأعمار والأوقات، والله المستعان.

ثالثاً: التوازن بين طلب العلم وحقوق الأهل والأولاد:

إذ إن حب طلب العلم للعلم أعظم من حب الناس للمال والنساء، وطالب العلم إن لم يوازن بين الحقوق المختلفة يضعف عن إكمال مسيرته.

وقد يقول قائل: إن السلف كانوا يطلبون العلم ولا يفكرون في غيره من الأمور المذكورة، وأقول لمن يقول ذلك: هات نساء كنساء السلف، وهات معيشة كمعيشتهم، ثمّ يصح لك بعد ذلك قياسك.

---

(١) أي: نوع من قسوة القلب.
(٢) اللذع: الإيلام والإحراق: «ترتيب القاموس المحيط»: (ل ذ عَ).
(٣) «صيد الخاطر»: ١٤١.

وهاك أمثلةً توضح مدى انشغال طالب العلم به، فقد قال سفيان بن عيينة[١] رحمه الله تعالى: «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وولده»[٢].

أي أشقاهم بكثرة انشغاله عنهم، وانشغاله عن طلب الرزق.

وسأل رحمه الله رجلاً: ما «حرفتك»؟ قال: طلب الحديث.

فقال له: «بشِّر بالإفلاس»[٣]. أي أنه لأجل حرفته هذه لن يطلب عملاً دنيوياً يُغني به أهله.

وقالت بنت أخت الزبير بن بكار[٤] لزوجه: «خالي خير رجل لأهل لا يتخذ ضَرَّة ولا سُرِّية[٥]، فقالت المرأة: والله هذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر»[٦].

ونحن اليوم بين مُفْرط ومُفَرِّط، بين قابع في بيته لا يخرج بدعوى الحفاظ على حقوق الأهل والأولاد، وبين مضيع لهم لا يعرف لهم حقاً ولا واجباً، وقليل من التزم الجادة وأعطى كل ذي حق حقه، والطريقة المثلى في ذلك ما كان عليه رسول الله ﷺ.

---

(١) الإمام سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه إمام حجة، توفي سنة ١٩٨ وله ٩١ سنة، انظر «التقريب»: ٢٤٥.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) العلامة الحافظ، النسابة، قاضي مكة وعالمها، أبو عبد الله بكار بن عبد الله القرشي الأسدي الزبيدي. ولد سنة ١٧٢. وتوفي بمكة سنة ٢٥٦ رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء» : ١٢/ ٣١١ـ٣١٥.

(٥) أي: الجارية المتخذة للتسري وهو الجماع.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٩٢.

رابعاً: التوازن بين طلب العلم وفعل التطوعات:

هذه مسألة مهمة طالما أرَّقت طالب العلم الجادَّ، حيث إنه يفضل طلب العلم على فعل التطوع، ويظل هذا الأمر يحوك في صدره زماناً طويلاً خاصة عند قراءة سير العابدين الزاهدين.

يقول الإمام الذهبي[١] رحمه الله شارحاً المراد: هذه مسألة مختلف فيها: هل طلب العلم أفضل أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر؟

فأمّا من كان مخلصاً لله في طلب العلم وذهنه جيِّد، فالعلم أولى، ولكن مع حظٍّ من صلاة وتعبد، فإن رأيته مجداً في طلب العلم لا حظّ له في القربات، فهذا كسلان مهين، وليس هو بصادق في حسن نيته.

وأما من كان طلبه الحديثَ والفقه غيَّةً ومحبة نفسانيّة فالعبادة في حقّه أفضل، بل ما بينها أفعل تفضيل.

وهذا تقسيم في الجملة، فقَلّ ـ والله ـ من رأيته مخلصاً في طلب العلم»[٢].

وقال في موضع آخر معلقاً على قول ابن المبارك[٣]: «ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة».

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله التركمانيّ الذهبي محدّث العصر، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألَّف مصنفات جامعة نافعة، وتوفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضَر مدة يسيرة. انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/ ١٠٠ـ١٢٣، لكن ليُحذر من طعن السبكيّ في الطبقات على شيخه الذهبي فإنه لا يلتفت إليه. والله أعلم.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٧٨.

(٣) عبد الله بن المبارك المروزي مولى بني حنظلة، ثقة ثبت فقيه، عالم جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة ١٨١ وله ٦٣ سنة. انظر «التقريب»: ٣٢٠.

فقال رحمه الله: «ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله»[(١)].

فحاصل كلام الإمام الذهبيّ رحمه الله تعالى هو وجوب التوازن بين العلم والعبادات التطوّعية لتحقيق الكمال المنشود، وإن كان ـ أي الذهبيّ ـ يفضل العلم على النوافل مثل كثير من السلف.

خامساً: التوازن بين طلب العلم الشرعي وبين طلب الثقافة الإسلامية والواقعية:

كثير من إخواننا الصالحين المعتكفين على العلم الشرعي قد قصروا أنفسهم عليه أو على جانب منه، ولم يهتموا بما يُثري ثقافتهم الإسلامية أو بمعرفة واقعهم الذي يعيشونه، فترى كثيراً منهم لا يفقهون أحوال إخوانهم المسلمين، ولا يهتمون بما آل إليه حال الأقليات، ولا يطّلعون على شبهات الكافرين والضالين.. إلخ.

وهذا الأمر ـ لا شك ـ عيب في العالم أو طالب العلم المتصدِّر لإرشاد الناس؛ إذ معرفة أحوال الناس أمر لا غنى عنه لفهم مشاكلهم والعمل على حلها.

والعجيب أن بعض الناس اليوم يستهزئ بأمر معرفة الواقع، ويعده من الفضول، بل علامة على خسارة الشخص المشتغل به، وهذا والله عجيب عجيب؛ إذ كيف يريدون أن يعيش الناس، ويواجهوا أعداءهم. أبجهل واقع الأعداء والغفلة عن شأنهم؟! نحن بحاجة ماسة لمعرفة الواقع العقدي، والفكري، والثقافيّ، والفني، والسياسيّ،

(١) المصدر السابق: ٢/ ٦٢١ ـ ٦٢٢.

والاقتصادي، والاجتماعيّ لكل الأمم المحيطة بنا ممن تتربص بنا الدوائر، وتعمل على حربنا بشتى الوسائل، وإن لم نفعل ذلك فنحن غارقون في الغفلة والسذاجة.

هذه بعض جوانب التوازن في طلب العلم التي لا مناص لطالب العلم من مراعاتها، حتى لا يضل الطريق السويّ أو ينقطع.

النازع الثاني: كثرة العبادة:

رغبة كل مسلم ملتزم بدينه أن يكون عظيم العبادة، كثير الأوراد، متقرباً إلى الله بشتّى الطاعات حتى يفوز في الآخرة بالمنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة.

وأشد ما يكون شوقه إلى الإكثار من العبادة حين يقرأ أو يسمع أخبار السّلف وعبادتهم، فهذا سُهيل بن عمرو(١) رضي الله عنه قد كان «كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجّد حتى شحب لونه وتغيّر، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن»(٢).

وهذا أنس بن عياض(٣) يحدث أنه رأى صفوان بن سليم(٤) ـ أحد

(١) خطيب قريش وفصيحها وشريفها. أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه. وكان سمحاً جواداً. قام بمكة بعد وفاة رسول الله ﷺ بنحو من خطبة الصديق بالمدينة فسكنهم وعظّم الإسلام. وكان كثير الصلاة والصيام والصدقة. واستشهد يوم اليرموك رضي الله عنه. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١/ ١٩٤ـ١٩٥.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٤ـ٣٥.

(٣) أنس بن عياض بن ضمرة، أبو عبد الرحمن الليثي المديني. ثقة توفي سنة مئتين وله ستة وتسعون سنة: «التقريب»: ١١٥.

(٤) الإمام الثقة الحافظ الفقيه، أبو عبد الله الزهري المدني مولى محمد بن عبد الرحمن بن عوف، كان قد بلغ في العبادة مبلغاً عظيماً، وكان من الصالحين الثقات. توفي سنة ١٣٢ وقد عاش ٧٢ سنة، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٩.

أئمة التابعين ـ «لو قيل له: «غداً القيامة» ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[١].

وهذا هنّاد بن السَّري[٢] يحدث عنه أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ[٣] بأنه كان «كثير البكاء، فرغ يوماً من القراءة لنا، فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلى إلى الزّوال، وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلى منزله، فتوضأ وجاء فصلى بنا الظهر، وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلّى المغرب، فقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة، فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل»[٤].

هذه بعض الأمثلة من عبادة السلف، إذ لو أكثرتُ لأتيت بالعجب العُجاب، فهذه الأخبار وغيرها يقرأها المسلم أو يسمعها يتفطر قلبه، ويتمنّى أن لو عبد الله مثلهم، ولكنه يصدم بواقعه، فهو يعمل من الصباح الباكر حتى العصر، هذا إن كان ممن اقتصر على عمل واحد، فكيف بمن يعمل مرتين في اليوم ـ صباحاً ومساءً ـ ثم إنه عندما يعود إلى منزله إمّا أن يخلد إلى الرّاحة أو يقضي حوائجه وحوائج أهله، ثم قد ينظر في بعض أموره، فينتهي يومه وهو في عمل متصل، حتى إذا

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٤٩٨.

(٢) الإمام الحجة القدوة، زين العابدين، أبو السَريّ التميمي الدارمي الكوفي. ولد سنة ١٥٢. وكان كثير البكاء، طويل التعبد. توفي سنة ٢٤٣ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٣) الحافظ الحجة المأمون، رفيق الإمام مسلم في رحلته. روى وجمع وصنف، توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٨٦. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٣٧٣.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٧ ـ ٨٤٨.

جاء المساء احتاج لقضاء بعض الوقت في الدعوة أو في شأن آخر، ثم يخلد إلى الراحة ليستيقظ فجراً، وهكذا دَوَاليك، فماذا يصنع وكيف يصل إلى ما وصل إليه القوم؟

لبيان ذلك لابد من توضيح الآتي حتى لا يصاب الشخص بإحباط، أو يكذب هذه الأخبار فيرتكب ما لا يسوغ:

١ـ لم يكن السلف يعملون أغلب أوقات نهارهم كما نفعل الآن، بل كان أحدهم إذا كسب ما يقوته اكتفى به، فهذا عتبة الغلام[١] ـ من نسّاك أهل البصرة ـ «كان رأس ماله فلساً يشتري به خُوصاً يعمله ويبيعه بثلاثة فلوس، فيتصدق بفلس، ويتعشى بفلس، وفلس رأس ماله»[٢].

وهذا شيخ الإسلام حماد بن سلمة[٣] إذا ربح في ثوب حبة أو حبتين لم يبع شيئاً[٤].

فهذه الصورة لكسب الرزق لم تعُد سائغة اليوم، ولا هي مطلوبة ـ أيضاً ـ في زماننا هذا الذي نريد الإمساك بزمام الأمر فيه.

٢ـ كانت عندهم بركة في الوقت تكاد تكون معدومة في عصرنا، وما ذاك ـ والله أعلم ـ إلا بإخلاصهم وكثرة تحريهم للحلال.

(١) عتبة بن أبان البصريّ. الزاهد الخاشع، كان ورعاً زاهداً عابداً. قاتل الروم فاستشهد رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٦٤.

(٣) الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو سلمة البصري النحويّ البزاز مولى آل ربيعة بن مالك. كان إماماً في الحديث والعربية، فقيهاً فصيحاً، رأساً في السنة، صاحب تصانيف، عابداً كثير التعبد. توفي سنة ١٦٧ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٤٤٤ ـ ٤٥٦.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٦٠٣. والمقصود بالحبة وزن حبة من شعير ونحوه ذهباً أو فضة.

٣ـ لم تكن الحياة بنحو هذا العسر الذي نعيشه الآن، فالأماكن كانت متقاربة، والعيش سهل، ولكن انظر إذا تعطلت سيارة الشخص مثلاً كيف يعسر عيشه، أو إذا خرب شيء في منزله فكيف يتنغص ويمكث أيّاماً من أجل إصلاحه، وهكذا. . .

٤ـ لم تكن هناك كثير من الأمور المزعجة لنا الآن، إذ هاجس الشخص الملتزم ـ اليوم ـ هو تربية أولاده فيحتاج إلى مراعاتهم وقضاء كثير من الوقت في إصلاحهم، بينما لم يكن ذلك كذلك عند السلف، وذلك لنقاء حياتهم وصفائها وخلوّها من كثير من أسباب الفساد الكائنة في هذا العصر.

وهاجس آخر ـ كذلك ـ هو توفير أسباب العيش الكريم له ولأهله؛ فقد ضاقت أرزاق كثير من الناس في كثير من البلاد على وجه لم يكن معروفاً عند سلفنا، وكذلك كانوا يقنعون بالرزق اليسير ممّا لا يقنع أبناء العصر بأضعافه.

وهاجس آخر، وهو أن الشخص الملتزم في كثير من ديار المسلمين أصبح يفكر كيف يتخفى بإسلامه ودينه عن أعين الغادرين والمتربصين.

والهواجس المزعجات أكثر من أن تُحصر في عصرنا.

٥ـ تغير نمط الحياة بحيث صار الشخص ـ إلا من رحم الله ـ يفكر في مستقبله ووظيفته وماله، وكذا مستقبل أولاده ووظائفهم وأموالهم، ويسعى لهذه الأمور الثلاثة سعياً عظيماً يكاد يغلب كلَّ سعي آخر.

٦ـ سَعْيُ الشخص المسلم ـ في كثير من ديار الإسلام ـ لإقامة دولة الإسلام قد اقتطع كثيراً من وقته، ولم يعد هناك الوقت الكافي لأن يكثر من العبادة، بخلاف أكثر السلف فإنهم كانوا يعيشون في ظل دولة

خلافة إسلامية عزيزة مرهوبة الجانب، قد كفتهم ـ في أكثر الأحيان ـ هذه المؤونة.

جوانب التوازن في التعبد:

إذا عرفنا هذا كله فماذا نصنع لكي نحقق التوازن بين العبادة البدنية وغيرها من العبادات المطلوبة من المسلم كالدعوة، والتعلم، وصلة الرحم، إلخ...؟

هذه بعض الجوانب المساعدة على هذا ـ في ظني ـ والله أعلم:

أولاً: الأولوية إقامة الفرائض:

لابد للشخص المسلم من إقامة الفرائض كاملة غير منقوصة، ولا يُعذر في ترك شيء منها إلا فيما يعذره فيه الشرع، ثم بعد ذلك يأتي بأنواع من الطاعات حسب قدرته وفراغه.

ثانياً: فعل بعض التطوعات أمر لازم لطالب الدرجات العلى:

لا محيص للمسلم ـ إذا أراد الدرجات العُلى ـ من فعل بعض الطاعات البدنية التطوعية بقدر ما يسعفه الزمان؛ لأن كثيراً من الناس يُعلل نفسه بأنه يدعو إلى الله، أو أنه يتعلم العلم، فلا وقت عنده لصلاة تطوع، ولا قدرة عنده على صيام نافلة، فهذا يُساق له قول الفُضيل بن عياض(١) رحمه الله تعالى: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم، كبّلتك خطيئتك»(٢).

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي الزاهد المشهور، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة، عابد إمام، مات سنة سبع وثمانين ومئة. انظر «التقريب»: ٤٤٨.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٥.

ثالثاً: العزيمة القوية:

لابد للشخص من العزيمة القوية حتى يستطيع فعل بعض الطاعات، فهذا أبو مسلم الخولاني[١] إذا فَتَرَ في العبادة ضرب ساقه سوطاً أو سوطين[٢]، وأما التراخي والتعلّل فلا يورث إلا حرماناً من القُربات، وقد يعبر عن العزيمة بالهمة، والحق أن العزيمة فرع عن الهمة، فمن ارتفعت همته صحت عزيمته، والعكس صحيح، والله أعلم.

رابعاً: إقامة الحقوق الأخرى:

لابد من إقامة الحقوق الأخرى قبل القيام بالعبادات التطوعية، وأعني بها حقوق الزوج والأولاد وما يماثلها مما يتعلق بذمّة الشخص، فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كنت تاجراً قبل المبعث، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فتركت التجارة ولزمت العبادة».

فقال الذهبي معلقاً على هذا: «قلت: الأفضل جمع الأمرين مع الجهاد، وهذا الذي قاله هو طريق جماعة من السلف، ولا ريب أن أمزجة الناس تختلف في ذلك، فبعضهم يقوى على الجمع كالصِّديق وعبد الرحمن بن عوف، وكما كان ابن المبارك، وبعضهم يعجز ويقتصر على العبادة، وبعضهم يقوى في بدايته، ثم يعجز وبالعكس، وكل سائغ، ولكن لابد من النهضة بحقوق الزوجة والعيال»[٣].

---

(١) عبد الله بن ثُوَب الداراني الخولانيّ، سيد التابعين وزاهد العصر، توفي بداريا في الشام سنة ٦٢، وله أخبار جميلة انظرها في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٧ ـ ١٤.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٥٧.

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن عون بن أبي جُحيفة[١] عن أبيه[٢] «أن رسول الله ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل فلمّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حقٍّ حقّه، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: صدق سلمان»[٣].

خامساً: الشمولية في العبادة:

لابد من الجمع بين التطوعات المختلفة، فلا يصلح الاقتصار على العبادات البدنية فقط، بل هناك عبادات أخرى يحسن الإتيان بها: فالدعوة، والتعلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصلة الرحم كلها من الأمور المهمة، بل قد تكون أهمَّ من العبادات التطوعية البدنية، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن تلك نفعها متعدٍّ، والعبادة البدنية نفعها ذاتي قاصر على العابد.

وهذا من ميزات دين الإسلام الذي جعل كل حركة يتحركها المسلم

(١) السُّوائي الكوفي ثقة. توفي سنة ١١٦ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٤٣٣.
(٢) وهب بن عبد الله السُّوائي، مشهور بكنيته، ويقال له وهب الخير. صحابي معروف رضي الله عنه، مات سنة ٧٤. المصدر السابق: ٥٨٥.
(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الصيام: باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع.

عبادةً إذا صلحت نيته وأتى بالعمل على قواعد الإسلام وأحكامه، والناظر للأديان والمذاهب لا يجد مثل هذه الميزة أبداً.

النازع الثالث: الدعوة إلى الله تعالى:

هذا مطلب لكثير من الملتزمين، وهو تأدية لحق العلم بالدعوة إلى الله تعالى، وهو أمر واجب في هذا العصر الذي ضلّ فيه كثير من الناس، واتّبعوا أهواءهم وشهواتهم، ونكصوا على أعقابهم، ونكثوا البيعة مع الله تبارك وتعالى.

وللدعوة (شروطها، ووسائلها، ومقوماتها، وآدابها) رسائلُ كثيرة، ولكن الذي هو مطلوب البحث ذكر بعض الأمور التي يتم بها للداعية أمر دعوته من حيث التوازن والاعتدال.

جوانب التوازن في الدعوة:

أولاً: التوازن بين الدعوة وأداء القربات:

حال خوض الداعية غمار الدعوة لا ينسى أن يوازن بين التقرب إلى الله بأداء بعض العبادات البدنية وبين الدعوة كما كان ﷺ يفعل؛ وذلك لأن الدعوة بدون قُرَب جفاف، والقُرَب بدون دعوة تضييع، والجمع بينهما حال الأنبياء والرسل.

قال التابعي معاوية بن قُرّة[(١)]: «من يدلني على رجل بكّاء بالليل بسام بالنهار»[(٢)].

---

(١) الإمام العالم الثبت، أبو إياس المزني البصري والد القاضي إياس. أدرك سبعين من الصحابة رضي الله عنه. وله كلام حسن. توفي سنة ١١٣ وهو ابن ٧٦ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ١٥٣ـ١٥٥.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٨٢.

فهو يبكي بين يدي الله تبارك وتعالى حال قيام الليل، ويضحك في وجوه الناس في النهار تألُّفاً وتحبُّباً.

وقد سُئل أبو أسامة عن الإمامين الكبيرين الفُضَيْل بن عياض وأبي إسحاق الفزاري[١] فأجاب بما يصلح إيراده ها هنا، إذ قال: «كان فضيلٌ رجل نفسه، وكان أبو إسحاق رجل عامّة»[٢].

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني[٣] رحمه الله: «أتمنى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنت في الأول لا أرى الخلق ولا يروني، ثم قال: أراد الله مني منفعة الخلق، فقد أسلم على يديّ أكثر من خمسمئة، وتاب على يدي أكثر من مئة ألف، وهذا خير كثير»[٤].

ثانياً: عدم الانجراف مع الناس حال دعوتهم:

ولست أقصد أن ينجرف معهم في معاصيهم؛ لأنه هذا خارج موضوع البحث، ولكني أقصد ألا ينجرف ـ حال دعوة الناس ـ إلى أن يكثر الهَذَر معهم، ويسترسل في اللغو والمزاح فيفقد تأثيره وبريقه، فلا يُقبل بعد ذلك غالب كلامه، ولله در الشاطبي[٥] رحمه الله حيث قال:

---

(١) الإمام الكبير، الحافظ المجاهد إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاريّ الشامي. كان من أئمة الحديث، صالحاً، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر. مات سنة ١٨٦ عن ثمانين سنة تقريباً. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٥٣٩ـ٥٤٣.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٦٧٩.

(٣) الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد، ولد بـ«جيلان» سنة ٤٧١، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١. انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥٧٣ ـ ١٥٧٦.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤٤٧.

(٥) الشيخ الإمام، العالم العامل، القدوة، سيد القراء، أبو محمد، وأبو القاسم، القاسم بن فيرُّه بن خلف بن أحمد الرُّعينيُّ، الأندلسي الشاطبي، الضرير، ناظم =

هو المجتبى[١] يغدو على الناس كلهم
قـريـبـاً غـريـبـاً مـسـتـمـالاً مـؤمّ

نعم هو قريب منهم بدعوته وغريب عنهم حال هذرهم ولغوهم.

قال الإمام ابن القيم[٢] رحمه الله تعالى: «فأما ما تؤثره كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يَسْود، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهمّاً وغمّاً وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلّت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد...

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات...

= «الشاطبية». ولد سنة ٥٣٨، وكان يتوقد ذكاء، له الباع الأطول في فن القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق، مع الورع والتقوى والتألُّه والوقار. استوطن مصر، وتصدر، وشاع ذكره، وتوفي سنة ٥٩٠ رحمه الله تعالى. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٦١ ـ ٢٦٤.

(١) المختار: «ترتيب القاموس»: (ج ب ي).

(٢) الإمام المشهور محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعي الدمشقي، شمس الدين الحنبليّ، ولد سنة ٦٩١ وتوفي سنة ٧٥١، وكان واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١-٢٣.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليسلّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه[١] أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللّجَأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، ولا يُنال هذا إلا بعدة صالحة، ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى»[٢].

ولله در الشافعي حيث يرشد تلميذه يونس بن عبد الأعلى[٣] فيقول: «يا يونس! الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقُرناء السُّوء، فكن بين المنقبض والمنبسط»[٤].

وهذا وَهْب بن مُنَبِّه[٥] رحمه الله قد جاءه رجل فقال: «قد حدثت نفسي أن لا أخالط النّاس، قال: لا تفعل، إنه لابدّ لك من النّاس

---

(١) أي بينه وبين أن يحصل على تلك الحالة مخالطته للناس.
(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٤٥ـ٢٤٦، بتصرف يسير.
(٣) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصَّدَفيّ، أبو موسى المصريّ، ثقة، توفي سنة ٢٦٤ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٦١٣.
(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤١.
(٥) الإمام العلامة، الأخباريّ القصصي، أبو عبد الله اليماني الذماري الصنعانيّ. ولد سنة ٣٤. وكان غزير العلم بالإسرائيليات. كان عابداً حليماً زاهداً وله كلام حسن. توفي سنة ١١٤ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧.

ولا بد لهم منك، ولهم إليك حوائج ولك نحوها، ولكن كن فيهم أصمّ سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً نطوقاً»[١].

ثالثاً: الإقلال من مخالطة المدعوِّين إلا لغرض صحيح:

وهذا لأن الداعية قد يلتبس عليه الأمر فيخالط المدعوّين لسبب وبدون سبب، ويكثر من زيارتهم كثرة تفضي به إلى أن تكون زيارته عادة وليست عبادة، فيضيع الغرض الصحيح الأوّل من الزيارة، نعم كثرة الزيارة لغرض صحيح أو لإصلاح مدروس أمرٌ لا غبار عليه بل هو من المندوبات.

قال الحميدي[٢] رحمه الله:

لـقـاء الـنـاس لـيـس يـفـيـد شـيـئـاً
سـوى الـهَـذَيـان مـن قـيـل وقـال
فـأقـلـل مـن لـقـاء الـنـاس إلا
لأخـذ الـعـلـم أو إصـلاح حـال

رابعاً: الإقلال من مخالطة الدعاة إلا لغرض صحيح:

قد يعتاد الداعية زيارة إخوانه الدعاة كثيراً فيضيع وقته وأوقاتهم، ويأخذ من وقت المدعوِّين بدون حق، فيجب على الداعية ألا يكثر من زيارة إخوانه الدعاة إلا لغرض صحيح من تنسيق في أعمال الخير، أو تخطيط لغزو بعض القلوب الصَّدئة ونحو ذلك.

---

(١) انظر «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٤٢.

(٢) الإمام الكبير شيخ الإمام البخاري، عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي الحُميدي المكي، أبو بكر، توفي بمكة سنة ٢١٩ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٣٠٣.

ويحسن بالدعاة ألا يتأثروا من قلة زيارة إخوانهم لهم؛ إذ المعيار هو الأخوّة وتقارب القلوب، وليس الدليل على المحبة كثرة الزيارة، فقد جاء يوسف القاضي[(١)] إلى الإمام إبراهيم الحربي[(٢)] فقال له: يا أبا إسحاق، لو جئناك على مقدار واجب حقِّك لكانت أوقاتنا كلها عندك. فقال: «ليس كل غيبة جفوة، ولا كل لقاء مودة، وإنما هو تقارب القلوب»[(٣)].

خامساً: التوازن في الحرص على الناس:

بعض الدعاة بسبب كثرة مخالطته للناس ومعرفته بمشاكلهم قد يضعف شعوره بمشاكلهم وتجاوبه معها، وبعض الدعاة على العكس من ذلك يكاد يتمزق كلما سمع مشكلة أو رأى منكراً، والمطلوب التوازن.

فقد حث الله سبحانه وتعالى رسوله الأعظم ﷺ على ألا يهلك نفسه حسرة على قومه فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[(٤)].

وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[(٥)]. والبَخْع: الهلاك.

---

(١) لعله يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، الإمام الحافظ المتوفى سنة ٢٩٧ كما في «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٨٦.

(٢) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغدادي الحربي، صاحب التصانيف، ولد سنة ١٩٨. كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً للعلة، صنف كتباً كثيرة، توفي سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٣٥٦.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٩٨٢.

(٤) سورة الشعراء: [٣].

(٥) سورة الكهف: [٦].

ولكنه قد غلب الناس في هذه الأزمنة تبلد شعورهم بمشاكل المسلمين، فيا حبّذا أن يتوازن هذا الأمر في الداعية، فلا يتأثر تأثراً يفضي به إلى عدم القدرة على العمل وإلى الإحباط واليأس، ولا يضعف هذا الشعور في نفسه فيتبلد حسه.

كان أويس القَرَنيّ(١) «إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب، ثمّ قال: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عُرياً فلا تؤاخذني به»(٢).

وهذا الزاهد أبو عثمان الحيري(٣) «طلب في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور فتأخر، فتألّم وبكى على رؤوس النّاس فجاءه ابن نُجيْد(٤) بألفي درهم فدعا له»(٥).

سادساً: التوازن بين كره التصدر والشهرة وبين وجوب قيادة الناس:

الداعية يكره التصدر والشهرة بطبعه لإخلاصه وبعده عن الرياء، ولكن ماذا يفعل إن تعيّن عليه نصح الجمهور وإرشادهم للحق، فإنه

---

(١) القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه، المرادي اليماني. من أولياء الله المتقين وعباده المخلصين. أثنى عليه النبي ﷺ في أحاديث صحيحة. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ١٩ـ٣٣.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٢٤.

(٣) الشيخ الإمام، المحدث الواعظ، القدوة، شيخ الإسلام، الأستاذ سعيد بن إسماعيل بن سعيد النيسابوري الصوفي. ولد بالري سنة ٢٣٠. وكان مجاب الدعوة، مجمع العباد والزهاد، وله مواعظ حسنة وحكم رائعة وكرامات جليلة. توفي سنة ٢٩٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٦٢ـ٦٦.

(٤) الشيخ الإمام القدوة، المحدث، الرباني، شيخ نيسابور إسماعيل بن نجيد السلمي الصوفي. ولد سنة ٢٧٢. وتوفي سنة ٣٦٥ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١١٥٨.

لا ينبغي له الفرار من الميدان بدعوى كراهية الشهرة والتصدر، كما أنه لا ينبغي له طلب الشهرة وإرادة التصدر لئلا يجرح إخلاصه.

قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[١].

وقال سبحانه قاصاً كلام سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

فهاتان الآيتان توضحان أن المسلم هو الرائد والدليل، بل قد ينبغي له طلب هذه الوظيفة الشريفة.

وقد يكون في قلب المتصدر المخلص حبٌّ للشهرة وهو لا يشعر به ولا يريده، ولكنه نازع من نوازع النفس الإنسانية لا يؤاخذ عليه إن شاء الله، فهذا إبراهيم بن أدهم[٣] يقول: «ما صدق الله عبدٌ أحب الشهرة».

فيعلق الذهبيّ قائلاً: «علامة المخلص الذي قد يحب شهرةً ولا يشعر بها أنه إذا عُوتب في ذلك لا يَحْرد ولا يبرئ نفسه، بل يعترف ويقول: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي، ولا يكن معجباً بنفسه لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر، فإن هذا داءٌ مزمن»[٤].

وقد أكثر السلف من التحذير من طلب التصدر وحب الشهرة، فهذا شيخ المالكية أبو عثمان بن الحدّاد[٥] يقول: «ما صد عن الله مثل

---

(١) سورة الفرقان: [٧٤].

(٢) سورة يوسف: [٥٥].

(٣) القدوة الإمام العارف، سيد الزهاد، أبو إسحاق العجلي الخراساني البلخي، نزيل الشام. ولد في حدود المئة. له كلام رائق جميل وكرامات. توفي رحمه الله سنة ١٦٢. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٣٨٧ ـ ٣٩٦.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٩٦.

(٥) الإمام شيخ المالكية سعيد بن محمد بن صبيح المغربي. أحد المجتهدين، وكان بحراً =

طلب المحامد وطلب الرفعة»[١].

ويقول الذهبي رحمه الله محذراً من حب الشهرة: «فربما أعجبته نفسه وأحب الظهور فيعاقب... فكم رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء، كما أنه سارٍ في نفوس المنفقين من الأغنياء... وهو داء خفيّ يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلقون العدو ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبآت وكمائن من الاختيال وإظهار الشجاعة ليُقال[٢]... يضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة وظلم للرعيّة وشرب للمسكر فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟... فمن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء تحامق واختال وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس»[٣].

والذي يحب الصدارة معرّض للذل، كما قال أبو الطيب سهل الصعلوكي[٤]: «من تَصدّر قبل أوانه فقد تصدّى لهوانه»[٥].

= في فروع الفقه، رأساً في لسان العرب، بصيراً بالسنن كريماً حليماً. توفي سنة ٣٠٢ عن ٨٣ سنة رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٠٥ ـ ٢١٤.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١٠٣٤.

(٢) أي ليقال عنهم إنهم شجعان.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٢٧٧ـ ١٢٧٨.

(٤) العلامة شيخ الشافعية بخراسان، الإمام الطيب سهل بن محمد العجلي الحنفي ثم الصُّعلوكي النيسابوري الفقيه الشافعي ويعده بعض العلماء مجدد المئة الرابعة. توفي رحمه الله تعالى سنة ٤٠٤ وهو في عشر الثمانين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٢٧٧ـ ١٢٧٨.

وكما قال زُفَر بن الهذيل(١): «من قعد قبل وقته ذَلّ»(٢).

وهذه الأقوال إن انطبقت على محب التصدر والشهرة وعديم الإخلاص فلا تنطبق ـ إن شاء الله ـ على داعية تصدّر لإرجاع قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم حتى لو شُهر وعرف فلا بأس عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ وله أسوة بالرسل الكرام، فهم أعظم الناس شهرة، وكذلك المصلحون والدعاة من بعدهم.

وما أجملَ قول الفُضَيْل رحمه الله: «من أحب أن يُذكر لم يذكر، ومن كره أن يُذكر ذُكر»(٣).

وقد وازن الفُضَيْل ـ أيضاً ـ هذا الأمر قائلاً: «إن استطعت ألا تكون محدثاً ولا قارئاً ولا متكلماً(٤)، إن كنت بليغاً قالوا: ما أبلغَه وأحسنَ حديثه وأحسنَ صوته فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً ولا حسن الصوت قالوا: ليس يحسن يحدّث وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك وشق عليك فتكون مرائياً، وإذا جلست فتكلمت لم تبال من ذمك ومن مدحك فتكلم»(٥).

وقد يكون المرء كارهاً للشهرة من باب التواضع الكاذب الذي سول لصاحبه أنه أضعف وأصغر من أن يشتهر ويعرف، وهذا داء سارٍ في كثير من الصالحين، ولولاه لتمكنوا من ارتياد آفاق أعظم لدعوتهم ودينهم.

---

(١) العنبري، الفقيه المجتهد، الرباني، العلامة، أبو الهذيل. ولد سنة ١١٠ كان ثقة مأموناً. توفي سنة ١٥٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦١٢.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦٦٥.

(٤) أي: فافعل إن كنت ممن يحب التصدر.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٥.

النازع الرابع: الجهاد في سبيل الله:

يطير المسلم شوقاً إلى الجهاد، وكلما دعاه الداعي إليه رغب فيه وحنّ إليه، والجهاد ـ لا شك ـ من أعظم القُرب وأفْعَلها في النفس وأشدها تأثيراً، استمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

فالذي يسمع هذا النداء العلويّ الجليل لابد أن يستجيب إن كان في قلبه إيمان قويّ.

جوانب التوازن في الجهاد:

وللتوازن بين نازع الجهاد وبين النوازع الأخرى من دعوة وتعليم وعبادة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ لا بد من ذكر التالي:

أولاً: العلم والدعوة قد يفضلان الجهاد الكفائي:

قد يكون العلم والتعليم والدعوة أفضل من الجهاد الكفائي في بعض الأحيان، وخاصة في هذا الزمان الذي قد يتصدر فيه للجهاد كثير، ولكن المتصدر الحكيم للتعليم والدعوة نادر أشبه بالمفقود، فالمتصدر ـ الصادق الحكيم ـ للدعوة يفعل في الأمة ـ أحياناً ـ ما لا يفعله جمع من المجاهدين.

---

(١) سورة التوبة: [١١١].

يقول يحيى بن معين[١] رحمه الله تعالى: «الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله».

فقال له محمد بن يحيى الذهلي[٢]: «الرجل ينفق ماله ويتعب نفسه ويجاهد فهذا أفضل منه؟ قال: نعم بكثير»[٣].

فهذا رأي يحيى بن معين في ذلك الزمان؟ فكيف في هذا العصر الذي قلّ فيه من ينشر العلم ويدعو بصدق وحكمة.

ثانياً: وجوب الاستعداد للجهاد:

من كان الجهاد مفضولاً في حقّه فليس معنى هذا أنه ينسى الاستعداد له نفسيّاً وعقلياً وبدنياً، بل ينبغي له أن يكثر من ذكره ويتمنّى الشهادة ويرغب فيها، بل يجعلها أسمى أمانيه، ويتحسّر على الجهاد إذا فاته، فهذا يونس بن عبيد[٤] الإمام التابعيّ «نظر إلى قدميه عند الموت وبكى، فقيل: ما يبكيك أبا عبد الله؟ قال: قدماي لم تغبرَّ في سبيل الله»[٥].

---

(١) الإمام الحافظ الجهبذ، شيخ المحدثين، أبو زكريا يحيى بن معين الغطفاني ثم المري بالولاء البغدادي، أحد الأعلام، ولد سنة ١٥٨. وكان رأساً في الجرح والتعديل. توفي بالمدينة في طريقه للحج سنة ٢٣٣، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٧١-٩٦.

(٢) الإمام العلامة الحافظ البارع، شيخ الإسلام وعالم أهل المشرق وإمام أهل الحديث بخراسان، أبو عبد الله الذهلي ـ بالولاء ـ النيسابوري. ولد سنة بضع وسبعين ومئة وتوفي سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٢٧٣ ـ ٢٨٥.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٧٨.

(٤) الإمام القدوة الحجة، من صغار التابعين وفضلائهم، العبدي ـ بالولاء ـ ثقة، ورع. توفي سنة ١٤٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٢٨٨ ـ ٢٩٦.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٠٣.

ولقد كان الكثير من السلف مستعدين للجهاد، فهذا الإمام البخاري(١) رحمه الله تعالى كان يركب إلى الرمي كثيراً، وكان لا يُسبق في إصابته الهدف(٢).

وهذا السلطان الصالح نور الدين محمود الشهيد(٣) «كان يكثر اللعب بالكرة فأنكر عليه فقير(٤) فكتب إليه: والله ما أقصد اللعب، وإنما نحن في ثغر فربّما وقع الصوت(٥) فتكون الخيل قد أدمنت على الانعطاف والكرِّ والفرّ»(٦).

وهذا سلطان الموحِّدين يوسف بن عبد المؤمن(٧) «أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تُملى على الجند، وكان هو يملي بنفسه وكبار الموحِّدين يكتبون في ألواحهم»(٨).

---

(١) الإمام الحافظ العلم محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي ـ بالولاء ـ توفي سنة ٢٥٦ بقرية خَرْتَنْك، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٣٩١ـ٤٧١.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٠٤.

(٣) صاحب الشام، الملك العادل، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن زنكي. ولد سنة ٥١١. كان حامل رايتي العدل والجهاد، قلّ أن ترى العيون مثله. وكان بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، حسن الرمي، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرض للشهادة في غزوات كثيرة غزاها مع الإفرنج. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٦٩. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٣١ ـ ٥٣٩.

(٤) أي: صوفي.

(٥) أي: جاء العدوّ.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤٥٤.

(٧) صاحب المغرب. كان حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والأخبار والفقه، متفنناً، جواداً، شجاعاً، استشهد بالأندلس التي دخلها للدفاع عنها سنة ٥٨٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٩٨ ـ ١٠٣.

(٨) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤٧٣.

وهذا العالم الصالح حَيْوة بن شُريح[١] إمام المصريين قد قال مرّة لبعض نواب مصر: «يا هذا، لا تخليَنّ بلادنا من السلاح، فنحن بين قبط لا ندري متى ينقضّ، وبين حبشي لا ندري متى يغشانا، وبين رومي لا ندري متى يحلّ بساحتنا، وبربري لا ندري متى يثور»[٢].

وأمّا سؤال الله الشهادة فقد كان الصالحون يكثرون منه، فهذا عتبة الغلام بات عند رياح القيسيّ[٣] فسمعه يقول في سجوده: «اللهم احشر عتبة من حواصل الطير وبطون السِّباع»[٤].

أي أن يستشهد في معركة ويُترك حتى تأكل الطير والسباع من لحمه.

وقد غفل كثير من الصالحين عن الاستعداد للجهاد، فهم إذ نادى مناديه لا أدري كيف سيستجيبون ولسان حالهم الناطق بالعجز أفصح من مقالهم.

ثالثاً: معرفة أنواع الجهاد:

هناك جهاد بالنفس وهو أعلاها مرتبةً، وهناك جهاد بالمال وهو من أعظم الأمور خاصةً في هذا العصر، وهناك جهاد بالقلم، وهناك جهاد بالدعوة، وهناك جهاد للنفس، وغير ذلك، فمن لم يوفق للجهاد بالبدن

---

(١) الإمام الرباني، أبو زرعة، التجيبي المصري، من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، وصاحب كرامات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٥٨. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٤٠٤ـ٤٠٦.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٥٣.

(٣) رياح بن عمرو القيسي العابد، أبو المهاصر، بصري زاهد، متألّه، كبير القدر، وهو قليل الحديث، كثير الخشية والمراقبة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ١٧٤ـ١٧٥.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٦٤.

فليس أقل من أن يجاهد بماله أو بلسانه؛ لأن هناك قوماً من الصالحين إذا تخلف عن الجهاد بالنفس صار إلى حبّ الدنيا والتشبث بها، كأنه لا منزلة بين المنزلتين، فهو إمّا أن يجاهد بنفسه أو يركن إلى الدنيا، وهذا غير صحيح، فهو إن لم يجاهد بنفسه فلا بدّ أن تكون حياته بين قومه جهاداً حقيقياً باللسان وبالحال وبالدعوة وغير ذلك.

وقد غفل كثير من إخواننا الصالحين عن هذا المعنى، فهم في ترف ودَعَة، وكأنهم بعدم خروجهم للجهاد البدني لعذر ما قد سقطت عنهم جميع أنواع الجهاد الأخرى.

النازع الخامس: طلب المال:

أهمية المال:

المجتمع الإسلاميّ ـ اليوم ـ في أمسِّ الحاجة إلى المال ليقيم به حياة إسلامية كريمة، والمال عصب لكثير من المشاريع الإسلامية النافعة، وكل مناحي العمل الإسلامي في حاجة إليه، إذ هو أساسٌ في الجهاد، والدعوة، والإعلام الإسلاميّ، واللجان الخيرية، وهيئات الإغاثة إلخ. . . باختصار هو أساس لا غنى عنه، فهل يلام المسلم الملتزم إن بحث عنه وجدّ في طلبه للأغراض المذكورة آنفاً؟ لا ليس عليه لوم، فقد قال سعيد بن المسيِّب[1]: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله يعطي منه حقّه ويكفّ به وجهه عن الناس»[2].

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين. انظر «التقريب»: ٢٤١.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٧٦.

وقال ابن المنكدر[١]: «نعم العون على تقوى الله الغنى»[٢].

وقال وهب بن منبِّه: «الدراهم خواتيم الله في الأرض، فمن ذهب بخاتم الله قضيت حاجته»[٣].

وقيل للإمام أبي الزِّناد[٤]: «لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا؟ فقال: لأنها وإن أدنتني منها فقد صانتني عنها»[٥].

وقال الثوري[٦]: «كان المال فيما مضى يُكره، فأمّا اليوم فهو تُرس المؤمن»[٧].

«ونظر إليه رجل وفي يده [أي سفيان] دنانير، فقال: يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير؟ قال: اسكت، فلولاها لتمندل بنا الملوك»[٨].

ولتحقيق التوازن في طلبه لابد من تدبر الآتي:

---

(١) الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام أبو عبد الله القرشي المدني. ولد سنة بضع وثلاثين. كان من سادات القراء بكاءً. له كلام حسن رائق، وأخبار جميلة. توفي سنة ١٣٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٣٥٣ـ٣٦١.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٦.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٤١.

(٤) عبد الله بن ذكوان، الإمام الفقيه الحافظ المفتي، أبو عبد الرحمن القرشي المدني، ويلقب بأبي الزِّناد. ولد نحو سنة ٦٥، وكان من علماء الإسلام وأئمة الاجتهاد. توفي سنة ١٣٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٤٤٥ ـ ٤٥١.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٠٨.

(٦) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أبو عبد الله، ثقة، حافظ، فقيه عابد، إمام حجة، مات سنة ١٦١ وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب»: ٢٤٤.

(٧) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٨٤.

(٨) المصدر السابق.

أولاً: وجوب كون المال في اليد لا في القلب:

فإن حب المال للمال إذا تمكّن في القلب أهلك صاحبه، فقد قال هشام بن حسّان[(١)]:

«سمعت الحسن[(٢)] يحلف بالله: ما أعزّ أحدٌ الدرهم إلا أذله الله»[(٣)].

ولكي يضمن الأخ الداعية عدم تغير نفسه بكثرة المال فإن عليه أن يستكثر من قراءة سير الصالحين الذين جمعوا بين الغنى والأموال الطائلة وبين الزهد والتطلع إلى الآخرة وما عند الله تبارك وتعالى، ومن أعظم من جمع بين الأمرين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما؛ إذ أن كثرة مالهما معروفة، وكانا ـ مع ذلك ـ مبشرْين بالجنة.

ثانياً: عدم الإغراق في طلب المال:

وهذا أمر خطير؛ إذ في غمرة حماس الأخ وتطلعه إلى جمع المال قد ينسى دعوته وعبادته فيقسو قلبه وتجف روحه، وإذا رأيته فكأنك ترى أحد أبناء الدنيا المتكالبين عليها والذين لا يبالون بأمر آخر غير حبها وتفضيلها.

فكم من نفوس زكية خربت، وكم من صلات أخوية متينة تقطعت

---

(١) هشام بن حسّان الأزديّ القُرْدُوسي، أبو عبد الله البصريّ، ثقة. مات سنة ١٤٧ أو التي تليها، وانظر «التقريب»: ٥٧٢.

(٢) هو الحسن البصري التابعي الكبير. توفي سنة ١١٠. وفي «التقريب»: ٧٢ كلام عن سماع هشام من الحسن، ولعل هذا النص هنا ـ إن صح ـ يثبت سماعه منه، والله أعلم.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٤٩.

بسبب التهافت على جمع المال ونسيان الآخرة، والحوادث أكثر من أن تحصر، ولكني أضرب ـ لما أقوله ـ ثلاثة أمثلة:

أعرف أخاً صالحاً داعية ثقة دخل مضمار الدنيا ففتح عليه قليلاً فظن أنه قد فاز، فابتلاه الله تعالى بأمور متعددة نتج عنها قطع صلاته بإخوانه، وخسرت الدعوة أخاً كان من المأمول أن يرتقي بها ويعلي من شأنها، وخسر هو إخوانه الذين هم رأسماله الحقيقي.

وأعرف آخر، ليس كسابقه، ولكنه مسلم مستقيم، ترك وظيفته لأجل طلب الدنيا التي استدرجته حتى وقع في حبائلها، فأصبح الآن يُرثى لحاله؛ إذ هو بعيد عن الله تعالى، مكروه من الناس، ممقوت حتى من أقرب أهله إليه، هذا بخلاف ما اعتاده ـ الآن ـ من كذب وغش وخداع.

وأختم بثالث كان نشيطاً في الدعوة محباً لها حينما كان موظفاً، فسوّل له الشيطان ترك الوظيفة والالتحاق بركب التجار، وكانت له أعذار في هذا ـ كالعادة ـ فغرق في بحر التجارة شيئاً فشيئاً حتى نسي المعاني العليّة التي كان يدعو لها، وتقهقر نشاطه، وفتر عزمه، وتشوش باله، وتفرق قلبه.

هذه بعض أمثلة توضح ما يمكن أن يصيب الأخ الداعية إذا جرى في المضمار بغير فرس جيد وبغير لجام.

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه موضحاً ذلك: «أعوذ بالله من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يُجعل لي في كل واد مال»[(١)].

(١) المصدر السابق: ١/ ١٦٠.

ثالثاً: المسارعة في إنفاقه لوجه الله تعالى:

قد يسوّل الشيطان لأصحاب الأموال جمعها وعدم الإنفاق منها بدعوى استعدادهم لمشاريع أخَر، وهذا المنطق قد يجر صاحبه إلى أن يكتنز الأموال فلا يراها المحتاجون الذين كان جمْعُ هذا المال من أجلهم، كما هو الظاهر.

نعم قد يقال إن هذا أمر نفسي لا يُطلع عليه، ولكني أردت أن أحذر إخواني حتى لا يكونوا مثل ذلك الداعية الواعظ الذي كان له جلالة عجيبة وأتباع وأنصار، ولكنه لما مات وجدوا له أربعين وعاء مختومة مليئة بالأموال لم يفك ختمها، فقال الذهبي: «كان من كبار المذكِّرين، لكن ما أقبح بالعالم الداعي إلى الله الحرص وجمع المال»[١].

رابعاً: وجوب التخصص في هذا الباب:

وأعني بذلك أنه ليس لكل داعية أو مسلم ملتزم الخوض في جمع المال بغرض الإكثار منه للإنفاق في سبيل الله تعالى؛ إذ لابدّ من ضوابط في هذا الباب، باب التجارة، تحكمه وتوجه العاملين فيه، فلا يصلح للتفرغ لهذا الأمر داعية قدوة، ولا غرٌّ ضعيف لا يفقه حيل السوق، ولا يصلح لهذا أيضاً طمع حريص إذا فُتحت عليه الدنيا غرق فيها، إلخ...

وأقول هذا حتى لا يطغى جمع المال ـ بدعوى الإنفاق منه في سبيل الله ـ على غيره من الجوانب المهمة في حياة المسلم، فيضيع في تلك الأودية.

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٢٣١.

المبحث الثالث
التوازن بين النوازع

واقعية هذا المبحث:

قد عرضت في الصفحات الماضية النوازع المختلفة التي تتأجّج في نفس المسلم الغيور، وأَوضحُ بأن تحقيق الاستجابة لنازع أو اثنين أمر قد يكون ميسوراً، ولكن كيف السبيل لتحقيقها كلها أو غالبها فيصير الإنسان قدوة؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال هناك سؤال آخر يدور بخلد الكثيرين، وهو مدى واقعية هذا المبحث وإمكانية تحققه في هذه الحياة المعقدة كثيرة المطالب.

ولابدّ قبل الإجابة على هذا السؤال التوضيح بأن هذا الكتاب كله لم يصنف لقاعدي الهمّة، أو للمحبَطين اليائسين الذين من صميم عملهم إحباط أي فكرة متفائلة أو على الأقل الغضّ من شأنها، إنما وضع هذا الكتاب لمن هو عالي الهمة، قويّ الإرادة، ترى بريق العزم في عينيه، ويفصح لسانه عن مخبوء صدره وعقله، فإن كنت من هذا الفريق، أو ممن يطمح لأن يكون منهم فواصل القراءة مستعيناً بالله، وإن كنت من فريق المثبطين فاعزم على فراقهم، والاستئناس بما ورد

في هذا الكتاب في مسيرتك الجديدة: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ[(١)] أَعْمَٰلَكُمْ﴾[(٢)].

إذاً قد يسأل سائل مستغرباً مستنكراً: هل هذا بحث واقعي يمكن إيجاد أو تحقيق ما يصبو إليه كاتبه من كتابته؟! أو هو مثاليات وكلام مُرسل لا قيد له ولا ضابط؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد من بيان أنه حتى يُتحقق من واقعية هذا الأمر وإمكانية تطبيقه يُنظر إلى جانبين اثنين:

الأمر الأول: هل حدث مثل هذا التوازن بين المتنازعات في عصور السلف الذين فهموا الإسلام وطبقوه أو حتى فيمن جاء بعدهم؟!

وأما الأمر الآخر: هل يمكن أن يحدث هذا التوازن في هذا الزمان؟ سواء أحدث في العصر الأول أم لم يحدث؟

أما الأمر الأول فقد تحقق جزماً في سيرة سيد المرسلين ﷺ، فقد كان ﷺ قويَّ الإيمان، راسخ اليقين، بل أعظم الناس في هذا ﷺ، وكان سيد العابدين الزاهدين، وكان مجاهداً عظيماً، وقائداً بطلاً شجاعاً، كما كان ﷺ خير الناس لأهله وأقاربه، وهو ﷺ ـ كذلك ـ أعظم الناس تربية لصحبه وأزواجه وأولاده، وهكذا لا تكاد تجد جانباً من جوانب التفوق إلا وقد حازه رسول الله ﷺ على الوجه الأعظم[(٣)].

---

(١) قال صاحب «مختار الصحاح»: وَتَرَهُ يَتِره ـ بالكسر ـ وتراً، بالكسر أيضاً: نقصه، وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: في أعمالكم» انظر «مختار الصحاح» (وتر).

(٢) سورة محمد ﷺ: [٣٥].

(٣) هناك كتب كثيرة تكفلت بإبراز جوانب العظمة والتفوق في شخصية رسولنا الكريم ﷺ مثل كتب السيرة، وكتب فقه السيرة، وهناك كتب تكفلت بإبراز صفاته ﷺ وتقريرها على الوجه الأتم وهي كثيرة فليرجع إليها للتوسع، ومن هذه الكتب: «زاد المعاد»، =

وهناك أمثلة أخرى لبعض صحابة رسول الله ﷺ تتفاوت في تحقيق الجمع بين الفضائل والموازنة بينها، ولكني أحب بيان حال من جاء بعدهم لشهرة الصحابة ولقلة من يَعرف مَنْ جاء بعدهم.

وهناك مثل مضيء من عصور السلف وهو الإمام بقيّ بن مخلد محدث الأندلس وعالمها وزاهدها، وأعرض عليكم سيرته لتعرفوا ما أقصده، قال الذهبيّ رحمه الله تعالى: «كان بَقيّ يختم القرآن كل ليلة، في ثلاثَ عشرةَ ركعة، وكان يصلي بالنَّهار مئة ركعة، ويصوم الدهر. كان كثيرَ الجهاد، فاضلاً، يذكر عنه أنه رابط اثنتين وسبعين غَزْوة».

ونقل بعض العلماء من كتاب لحفيد بَقيٍّ عبد الرحمن بن أحمد: كان جدِّي قد قسَّم أيامَه على أعمال البرِّ: فكان إذا صلى الصُّبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف، سُدسَ القرآن، وكان أيضاً يَخْتم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلة، ويَخْرجُ كلَّ ليلة في الثلث الأخير إلى مسجده، فيختم قُرب انصداع الفجر، وكان يُصلي بعد حزبه من المصحف صلاةً طويلةً جداً، ثم ينقلب إلى داره ـ وقد اجتمع في مسجده الطلبة ـ فيجدِّد الوضوء، ويخرج إليه، فإذا انقضت الدُّول[1]، صار إلى صومعة المسجد، فيصلي إلى الظهر، ثم يكون هو المبتدئ بالأذان، ثم يهبط، ثم يُسمعُ[2] إلى العصر، ويصلي ويُسمع، وربما خرج في بقية النهار، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر، فإذا غربت الشمس أتى مسجده، ثم يصلي، ويرجع إلى بيته فيفطر، وكان يسردُ

= و«بطل الأبطال» لعبد الرحمن عزّام، و«الرحيق المختوم» للمباركفوري، وغيرها كثير.

(١) النُّوَب، وهي أوقات الطلبة التي يتداولونها بينهم.

(٢) أي: يُسمع الطلبة.

الصومَ إلا يوم الجمعة، ويخرج إلى المسجد، فيخرُج إلى جيرانه، فيتكلَّم معهم في دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشاء، ويدخل بيته، فيحدِّث أهلَه، ثم ينام نومة قد أخذتْها نفسُه، ثم يقوم. هذا دَأبُه إلى أن توفي. وكان جَلْداً، قويّاً على المشي، قد مشى مع ضعيف في مَظْلَمة إلى إشبيلية، ومشى مع آخر إلى إلبيْرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جَيَّان»[1].

هذه هي سيرة الإمام بَقيّ بن مخلد، يراها كثير من الناس من ضروب الخيال، ويراها الصالحون العاملون فيعلمون أنها ترجمة عملية لحياة بعضهم ولأشواق كثير منهم.

فهو رحمه الله قد عبد الله أحسن ما تكون العبادة.

ولم ينس تلاميذه وأصحابه، فكان يعلمهم ويرشدهم ويوجههم.

ولم يُغفل جيرانه، فقد كان يتعهدهم بالنصح والإرشاد.

وكان يتعهد أهله ويحدثهم ويؤانسهم.

ولم يمنعه ذلك كله من الانتصار للمظلومين والسفر من أجلهم، حتى لو كان ذلك المظلوم امرأة ضعيفة.

وقد توّج أعماله الصالحة بالجهاد، فقد «كان كثير الجهاد، رابط اثنتين وسبعين غزوة».

ثمّ إنه قد فهم الشرط الأساسي والمهم لكل تلك الأعمال الصالحة حتى تدخل سجلات الخالدين ألا وهو الدوام والدأب عليه.

رحمه الله تعالى، فقد كانت شخصيته المثال المطلوب المفقود.

---

(١) مدن أندلسية، وانظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٧٥.

وبهذا المثل ـ وهناك عشرات غيره في التاريخ الإسلامي، وإنما ضربته مثالاً لقلة من يعرفه في عصرنا ـ نتبين، أن هذا الأمر ـ أمر التوازن ـ قد حدث في عصور سلفنا رحمهم الله، فحدوثه في هذا الزمان ممكن، وليس بمستغرب.

وليس على الله بمستغرب
أن يجمع العالم في واحد

وأما الأمر الآخر وهو إمكانية حدوثه في هذا الزمان ففيه توضيح وضوابط:

أما التوضيح في هذا الأمر فهو أن هذا الزمان أصبح من الصعوبة والتعقيد بمكان، وقد تداعت الأعداء علينا من كل جانب، وأصبحنا نفاجأ كل يوم بجديد، وقد قلّت بركة الزمان، وكثرت فيه الهموم اليومية والمطالب الدنيوية كثرة عظيمة، وتباعدت الأمكنة والديار، وكثرت شواغل الحياة كثرة قد يصعب معها فعل هذا الأمر، ولكن هناك ضوابط إن استقامت للشخص يستطيع أن يفكر في مثل هذا، ويوفقه الله في تحقيقه.

وإليك ـ أخي القارئ ـ مناقشة لطيفة متوهمة بين المرء وبعض نوازعه، كتبها أحد الأفاضل، ورأيت أن أثبتها بنصها لملاءمتها موضوع الكتاب ولطرافتها، فقد كتب تحت عنوان «حسم الصراع» ما يلي:

«إن تعدد الأجزاء في داخل نفسك هو أمر طبيعي، ولكن يحصل في كثير من الأحيان ـ كما أشرنا من قبل ـ أن يكون هناك صراع بين هذه الأجزاء، وقد يخف هذا الصراع حتى يتلاشى في أوقات معينة،

أو ظروف معينة، فتكون في حالة عدم انسجام، وتتوقف النتيجة على المحصلة النهائية لانسجام الأجزاء، وتأثير ذلك على حياتك وأدائك.

وفي حالة احتدام الصراع واشتداده يكون من الضروري حسمه، وإنهاء النزاع بين الأجزاء، وتحقيق السلام بينهما».

وفيما يلي وصف لعملية حسم الصراع لدى شخصية رمزية (عبد الله) الذي توجد بداخله ستة أجزاء، أو ست شخصيات، فعبد الله رجل متدين، وهو موظف لدى الدولة، ومتزوج وله خمسة أولاد، وهو يحب رياضة المشي ويزاولها، كما أنه يكتب بعض المقالات في الصحف والمجلات، وحيث إن دخل عبد الله محدود فهو يفكر بعمل إضافي (تجاري) يدر عليه مالاً إضافياً.

وقد نشأت عند عبد الله حالة من الصراع بين هذه الأجزاء المختلفة، فوقته لا يسمح بالقيام بها كلها، وكثيراً ما يشعر بالتقصير وتأنيب الضمير تجاه واحد أو أكثر من هذه الأجزاء.

وقد استشارنا عبد الله فيما يمكن فعله لحسم هذا الصراع الداخلي في نفسه بين هذه الأجزاء الستة، فأخبرناه بأن يتخيل هذه الأجزاء الستة وكأنها أشخاص لكل منهم اهتمامه ورغباته، وأن يدعوهم إلى اجتماع لمناقشة النزاع بينهم، وطلبنا أن يقدم لنا تقريراً عن عملية حسم الصراع لديه لنشره على القراء لعلهم يفيدوا منه، فاستجاب عبد الله، وبعد أيام وافانا مشكوراً بتقريره التالي:

يقول عبد الله: وجهت الدعوة إلى الشخصيات الست لعقد اجتماع طارئ لمناقشة موضوع الصراع وإيجاد طريقة لحله، فحضر

الجميع إلى غرفة الاجتماعات في الوقت المحدد، وهو: الموظف، والأب، والرياضي، والكاتب، والعابد، والتاجر، فأخذوا أماكنهم حول طاولة الاجتماعات، وطلب عبد الله من العابد أن يترأس الجلسة ويدير الاجتماع، فقام العابد وجلس في المكان المخصص لرئاسة الاجتماع، فحمد الله وأثنى عليه، وذكّر المجتمعين بوجوب التعاون على البر والتقوى، والانتهاء عن الإثم والعدوان، وسأل: هل الحضور مكتمل؟ فقالوا: إن الجميع موجودون وليس هناك غائب، فقال: أريد أولاً أن أذكِّركم بجدول الأعمال لهذا الاجتماع، فحسب ما هو موجود في الورقة التي أمامي، فإن هذا الاجتماع مخصص لمناقشة الصراع الدائر بيننا حول توزيع أوقات السيد عبد الله بهدف التوصل إلى صيغة تعطي كل ذي حق حقه بالعدل والقسطاس المستقيم، من أجل أن يستطيع السيد عبد الله القيام بأعماله وواجباته، على أحسن ما يكون القيام به.

وأود أن أوضح لكم أيها السادة أن للسيد عبد الله أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، منها سبع ساعات للنوم، وسبع عشرة ساعة لكم، وسوف تدور مداولات هذا الاجتماع حول ساعات اليقظة فقط، إذ لا سبيل إلى ساعات النوم؛ لأنها من حق السيد عبد الله، كما أرجو أن يكون الكلام مقتصراً على هذا الأمر، وعدم إقحام أمور أخرى لا علاقة لها بالهدف من هذا الاجتماع، كذلك أرجو أن يكون الكلام واضحاً ومختصراً، وأن تستأذنوا من رئيس الجلسة عند طلب الكلام، وألا يقاطع أحد منكم أحداً أثناء حديثه، وسيقوم السيد

الكاتب بتدوين محضر الجلسة فلنبدأ باسم الله. وهنا رفع التاجر يده طالباً الكلام.

الرئيس: تفضل.

التاجر: إن شعوري بالمسؤولية جعلني أفكر في الظروف التي تحيط بالسيد عبد الله، والتبعات الملقاة على عاتقه، وقد توصلت إلى أنه من الأفضل لي ولزملائي المحترمين أن أنسحب من الجلسة عن قناعة ورضا، إذ أنني تأكدت بأني لا أستطيع أن أقوم بعملي التجاري في هذه الظروف، لذلك فلا أرغب في هذا الاجتماع، ولا أريد تخصيص أي شيء لي من وقت السيد عبد الله الآن، إن قراري هذا لا يعني إلغاء وجودي بينكم، إنما يعني تعليق مطالبي في الوقت الراهن ولمدة سنة واحدة على الأقل، على أن أحتفظ بحق المطالبة لتخصيص جزء من الوقت لي متى رأيت أن الظروف ملائمة لذلك، وشكراً.

الرئيس: شكراً للسيد التاجر، لقد سمعتم ما قاله زميلكم، والأمر مفتوح للمناقشة.

الموظف: لقد فوجئت بقرار السيد التاجر، ولا أعلم الدوافع الحقيقية له، ولكني أود التوضيح بأن المسؤوليات المالية تقع كلها على عاتقي، وليس لي غير الراتب الذي أتقاضاه في نهاية كل شهر، وأشعر بأن السيد عبد الله يحتاج إلى مورد مالي إضافي، وخاصة أن له زوجة وأولاداً، وأن هؤلاء الأولاد سيكبرون وسيحتاجون إلى مزيد من النفقات، ولا أعلم إن كنت أستطيع القيام بذلك وحدي، لذا أرجو من السيد التاجر أن يعيد النظر في قراره.

الأب: إنني أتفهم موقف السيد الموظف، كما أني أشعر بشعوره أيضاً، فأنا زوج وأب لخمسة أطفال، وأنا المسؤول المباشر عن إعالتهم، كما أني أتوقع ازدياد النفقات في السنوات القادمة، وكذلك الحاجة إلى المال في الحالات الطارئة، ولكني من ناحية أخرى أقدر الموقف الصريح للسيد التاجر في أنه لا يتوقع حصوله على وقت كاف لمزاولة عمل إضافي في الوقت الراهن، لذلك أرجو التأكيد من أن قرار السيد التاجر هو تعليق للأمر لمدة سنة، وليس إلغاؤه على أن يطرح الموضوع في اجتماع خاص بعد مرور السنة، كما أقترح أن يبقى السيد التاجر معنا هنا بصفة مراقب دون أن يكون له حق التصويت.

الرئيس: شكراً للسيد الأب، هل هناك من لديه ما يقوله بشأن موضوع السيد التاجر؟

الكاتب: يعلم الجميع أن طلباتي متواضعة، وقد يؤيدني في ذلك السيد الرياضي؛ لأن طلباته متواضعة كذلك.

الرياضي: هذا صحيح.

الكاتب: لذلك فإني أؤيد اقتراح السيد التاجر في تعليق مشاريعه، وأرجو أن يتاح لي مزيد من الوقت لممارسة الكتابة، وخاصة أني أتوقع أن يتضاءل نصيبي إذا ما قرر التاجر البدء بأعماله.

الرئيس: يبدو أن الجميع موافقون على اقتراح السيد التاجر، وهذه علامة جيدة على الجو الودي الذي يسود الاجتماع، وإني أضم صوتي إليكم ليكون قراراً بالإجماع، أرجو من سكرتير الجلسة السيد الكاتب تدوين هذا القرار في المحضر.

الموظف: ليسمح لي السيد الرئيس ببيان موقفي، فإن لي الآن ثماني ساعات في اليوم للقيام بأعباء وظيفتي، وأشعر بأني بحاجة إلى أمرين اثنين، الأول: هو إلغاء إجازتي السنوية ليتسنى لي إنجاز بعض الأعمال المتراكمة في مكتبي؛ لأن ذلك يساعد على ترقيتي في السلم الوظيفي. والأمر الثاني: هو رجائي لرئيس الجلسة والزملاء المحترمين أن يوافقوا على تخصيص ثلاث ساعات من وقت السيد عبد الله لأستطيع القيام بعمل إضافي خارج ساعات العمل الرسمية، وذلك لزيادة دخل السيد عبد الله، وخاصة وأن السيد التاجر قد انسحب من المشاركة في الوقت الحاضر.

الكاتب: هذا ليس عدلاً، ولا إنصافاً، فإنك تستأثر بنصف الوقت المتاح، وأنك...

الرياضي: وأنا أعترض على إلغاء الإجازة، لأنني أنتظرها ساعة بساعة، وقد وضعت برنامجاً للإفادة من وقتها، وأظن...

الرئيس (مقاطعاً): أرجو من الزميل الرياضي أن لا يقاطع المتحدث حتى يكمل حديثه، ثم يطلب التحدث.

الرياضي: أرجو المعذرة.

الرئيس: تفضل أيها الكاتب، أكمل حديثك.

الكاتب: ما أردت قوله للسيد الموظف هو أننا وافقنا السيد التاجر على تعليق طلباته نظراً لعدم وجود وقت كاف له، فكيف يطلب السيد الموظف سلخ ثلاث ساعات في اليوم من وقت السيد عبد الله، إن هذا ليس إنصافاً، كان الأجدر أن تعطى هذه الساعات الثلاث، إن توفرت للسيد التاجر، أما وأنه قد علق طلبه فإني أرجو أن يؤخذ وضعي بنظر

الاعتبار، ذلك بأني أشعر بالغبن، فليس لدي إلا بضع ساعات في الأسبوع لمزاولة هوايتي في الكتابة، والكتابة كما يعلم حضراتكم تحتاج إلى القراءة، وبالتالي فإني أحتاج إلى أربع ساعات في اليوم لمواصلة الكتابة.

الرياضي: إنني أشعر بضيق بسبب الطلبات الكثيرة والمتزايدة للزملاء، ويجب أن تعلموا ـ أيها السادة ـ بأن العقل السليم في الجسم السليم، وأن ممارسة الرياضة ليست أمراً ثانوياً كما قد يظنه البعض، وإذا كان السيد الكاتب يطالب بأربع ساعات فلن أرضى بأقل منه، ولكني سأقتنع بساعة في اليوم لأداء مهمتي.

الأب: مهلاً مهلاً ـ أيها الزملاء ـ يبدو كل واحد منكم يتحدث وكأنه ليس هناك أحد غيره، هل نسيتم أن لي زوجة وأولاداً خمسة يحتاجون إلى رعاية، وتربية، وتوجيه، فما فائدة الكتابة والرياضة إذا ساءت أمور العائلة، وضعفت العلاقات بين أفرادها، إن أمر العائلة ورعايتها يحتاج إلى ما لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة في اليوم، كذلك أود تنبيه الزملاء إلى أمر يبدو أنهم نسوه، وهو حقوق السيد العابد رئيس الجلسة، فلديه واجبات يومية نحو ربه خمس صلوات في اليوم والليلة، وقراءة جزء من القرآن، إضافة إلى خلوة مع نفسه بين فترة وأخرى، فإذا أخذنا هذا الأمر بنظر الاعتبار فلن يبقى هناك وقت للكاتب ولا للرياضي، وأظن أن ما يقومان به هو ترف لا حاجة لنا به.

الرئيس: أشكر السيد الأب على تطرقه لحقوقي، في الواقع هي حقوق الله، وكنت على وشك أن أنبه الزملاء إليها، وقد كفاني السيد الأب ذلك فجزاه الله خيراً، إننا هنا ـ أيها الزملاء ـ لإيجاد صيغة عادلة

ترضي الجميع، ولا نريد إلغاء حق أحد، ولكن يجب أن يتذكر الجميع أن لدينا سبع عشرة ساعة فقط، فلننظر إلى مجموع الساعات المطلوبة لحد الآن، ولكن قبل ذلك أود إخباركم بأني أحتاج إلى ساعة واحدة في اليوم لأداء الصلوات الخمس، أما قراءة القرآن والنوافل فقد اتفقت مع السيد عبد الله على أخذ ساعة إضافية من نومه، وهذا كما تعلمون اتفاق خاص لا شأن لكم به، كما أنه لا يؤثر على الأوقات الأخرى، على أني لابد أن أبوح لكم برغبتي في أخذ مزيد من الوقت، وأرجو أن تضعوا هذا الأمر في حسابكم، وخاصة وأن الدنيا ليست بدار قرار، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، وأملي كبير في أن يعطيني كل واحد منكم جزءاً من وقته لأستطيع التقرب إلى الله بالنوافل، وهو خير للجميع إن شاء الله، (ملتفتاً إلى الكاتب): ما هو مجموع الساعات الآن؟

الكاتب: لدي الآن طلبات بالأوقات كما يلي:

الموظف	١١ ساعة (٨ ساعات + ٣ ساعات إضافية).
الكاتب	٤ ساعات.
الرياضي	ساعة واحدة.
الأب	١٢ ساعة.
العابد	ساعة واحدة.
المجموع	٢٩ ساعة.

سيدي الرئيس، لدينا ٢٩ ساعة، بينما الوقت المتاح لنا هو ١٧ ساعة فقط.

الرياضي: لقد أثر كلام السيد العابد في نفسي، وفكرت في أن هذا الجسم الصحيح الذي أريده لن ينفعها غداً يوم يقوم الحساب، وأن الله هو الذي يحيي ويميت ويمنح الصحة والقوة، لذلك أرجو إعطائي نصف ساعة في اليوم للمحافظة على اللياقة البدنية للسيد عبد الله، كما أرجو إعطائي بضع ساعات أخرى في أيام العطل والإجازات للاستمتاع بلعبة كرة المنضدة التي أحبها.

الموظف: لم أكن أعلم أن هناك واجبات وأعباء كثيرة يتعين على السيد عبد الله القيام بها، كما أني أعتذر للسيد التاجر عن عدم مراعاتي لتضحيته، لذلك فأود أن أعلن عن تنازلي عن مطالبتي بالساعات الإضافية الثلاث، إلا أني أرجو من الزملاء الموافقة على إلغاء إجازتي السنوية، وهو لمدة ستة أسابيع.

الأب: وأنا كذلك أظنني أسرفت في أمر العائلة، وسوف أبذل جهدي لأن أكتفي بست ساعات فقط، من ضمنها زيارات لبعض الأقارب والأصدقاء، ولكني لا أوافق على طلب السيد الموظف بإلغاء إجازته، إذ أنها ليست حقاً له، وإنما هي للجميع.

الكاتب: يبدو أن الأنظار تتوجه إلي، فالجميع قد بادر بالتضحية ولم يبق غيري، لذا أعلن عن عزمي على الاكتفاء بساعتين في اليوم، كذلك أود التنسيق والتعاون مع السيد العابد؛ لأن أوقاتنا متجاورة، وغالباً ما تكون في الليل أو في أوقات الخلوة.

الرئيس: على الرحب والسعة، وأود إخبارك بأني على علاقة جيدة بالسيد عبد الله، وهو لا يبخل علي بجزء من ساعات نومه كلما احتجت ذلك للصلاة وللقيام.

الرياضي: سيادة الرئيس، أرجو الانتباه إلى أن السهر يضر بالصحة.

الرئيس: أعلم ذلك، وليس الغرض هو تجاوز الحقوق، فإن رسول الله ﷺ يقول: «إن لبدنك عليك حقاً...»، والآن يقرأ علينا السيد الكاتب الأوقات الجديدة المخصصة لكل زميل.

الكاتب: لدينا الآن:

الموظف	٨ ساعات.
الكاتب	ساعتان.
الرياضي	٠,٥ ساعة.
الأب	٦ ساعات.
العابد	ساعة واحدة، مع وعد من الكاتب بالتعاون.
المجموع	١٧,٥ ساعة.

الأب: يبدو أن المجموع هو ١٧,٥ ساعة، أرجو من الزميل الرياضي أن يتعاون معي، وسوف أجد له الوقت اللازم مما هو مخصص لي، وخاصة وأنني أشرك الأولاد في بعض الألعاب الرياضية، فهم يحبون كرة القدم.

الرياضي: فكرة ممتازة، سوف أعمل على تدريبهم على كرة المنضدة أيضاً، وسأجري مباريات معهم.

الموظف: بقيت قضية الإجازة وهي ستة أسابيع.

الرئيس: إني أقترح أن تأخذ أسبوعين وتدع أربعة لزملائك الآخرين. ما هو رأيكم؟

الجميع (يهزون رؤوسهم): موافقون.

الرئيس: هل هناك شيء آخر يود أحد منكم قوله؟

الصمت علامة الرضا، أرجو أن يكون كل منكم سعيداً بما كتب الله له، وأدعو الله تعالى أن يوفقكم ويبارك لكم في أوقاتكم.

(يلتفت إلى الكاتب): سجّل، تم الاتفاق بالإجماع، شكراً لكم، وفي رعاية الله)[١].

أسس وضوابط لتحقيق التوازن:

تنقسم هذه الأسس والضوابط إلى قسمين:

أ ـ صفات لا بد من توفرها في الشخص.

ب ـ وصفات أخرى لابد من توفرها في بيئته.

الأسس والضوابط اللازم توفرها في بيئة الشخص:

أولاً: الطمأنينة والأمن:

وجود المسلم في دولة يقل فيها النزاع بين الناس بعضهم بعضاً، وبين الناس وولاتهم، بحيث يغلب على أهل البلد الطمأنينة والأمن والاستقرار، ووجود مثل هذا عامل مهم لتحقيق التوازن المذكور.

قيل لخُريم المُرِّيّ: «ما النعمة؟ قال: الأمن؛ فإنه ليس لخائف عيش، والغنى؛ فإنه ليس لفقير عيش، والصحة؛ فإنه ليس لسقيم عيش، ثم لا مزيد على هذا»[٢].

---

(١) «آفاق بلا حدود»: ٨٦ ـ ٩٤.

(٢) «الممتع»: ١٠١.

ثانياً: الخلوّ من الكدورات والهموم:

لابد من إيجاد مناخ نفسيٍّ ملائم لطالب هذا الأمر، بحيث تكون الشواغل عنه بمنأى، أما من ابتلي بزوجة عَسرة كثيرة المطالب والهموم، أو من ابتلي بوالدة أو بوالد لا يريدان فراقه، أو من كان همّه توفير لقمة العيش حيث إنه في بلد فقير كادح، فهذا لا يستطيع أن يحقق المطلوب من هذا البحث ولا بعضه، وقد سبق قول خُريم في الفقرة السابقة «ليس لفقير عيش»: أي: عيش حسن.

ثالثاً: انتشار العلم والثقافة:

فمن شروط تحصيل هذا المطلوب العزيز وجود الشخص في بيئة علمية وثقافية قوية؛ لأن قلة العلم والثقافة قتل للإبداع، وحصر للفكر، وتسبب الرتابة في العمل، والانزواء في الأفكار، وليس أدلّ على ذلك من أن علماء الأمة المبدعين كانوا يعيشون في المراكز العلمية والثقافية الكبرى على امتداد التاريخ الإسلامي، وذلك في المدينة ودمشق والقاهرة وبغداد ونيسابور وغيرها من المدن.

الأسس والضوابط اللازم توفرها في الشخص:

أولاً: الإعداد المبكر والعناية الإلهية:

اهتمام الشخص منذ الصغر ببعض الجوانب المذكورة في المباحث السابقة أمر مهم، فلا يعقل أن يبلغ الشخص مبلغ الرجال ثم يفكر في تحقيق هذه الأمور، فقد كان أئمتنا منذ حداثة أسنانهم يطلبون الكمال في كثير من الجوانب الشرعية وغيرها، قد أعدّهم الله للتصدر والرفعة والإمامة منذ صغرهم.

ذكر الإمام السخاوي[١] أن الإمام النووي[٢] «نشأ في... ستر وخير، ولما بلغ من العمر سبع سنين كان نائماً ليلة السابع والعشرين من رمضان بجانب والده... فانتبه نحو نصف الليل... وقال: يا أبتي ما هذا الضوء الذي قد ملأ الدار؟ فاستيقظ أهله جميعاً فلم نر كلنا شيئاً، قال والده: فعرفت أنها ليلة القدر[٣].

وذكر ولي الله الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي قال: رأيت الشيخ وهو ابن عشر سنين بـ (نَوَى) والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، قال: فوقع في قلبي محبته، وكان قد جعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت معلمه فوصيته به، وقلت له: إنه يُرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم وينتفع الناس به، فقال لي: أمنجمٌ أنت؟ فقلت: لا، وإنّما أنطقني الله بذلك. قال:

---

(١) الشيخ الإمام، العلامة، الرُّحَلة، الحافظ محمد بن عبد الرحمن القاهري الشافعيّ، أبو عبد الله. ولد سنة ٨٣١، وحفظ القرآن وهو صغير وحفظ عدة متون. وأخذ عن أكثر من ٤٠٠ شيخ واختص بشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر. وله مصنفات كثيرة. توفي بالمدينة سنة ٩٠٢ بعد مجاورته فيها زماناً رحمه الله تعالى. انظر «النور السافر»: ١٦ ـ ٢١.

(٢) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرِّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي الزاهد، ولد سنة ٦٣١ بـ (نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام. وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبد، وألف مصنفات نفع الله تعالى بها المسلمين، توفي بـ (نوى) سنة ٦٧٦، رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

(٣) هذا يدل على عناية الله به، منذ صغره.

فذكر المعلم ذلك لوالده فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الحلم»[١].

وهذا الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى يحكي عن نفسه قائلاً: «أذكر نفسي ولي همّة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار، قد رزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً، حتى أني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، فلا أتخير حلقة مشعبذ، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسير فأحفظ جميع ما أسمعه، وأذهب إلى البيت وأكتبه، ولقد رفق بي شيخنا أبو الفضل بن ناصر[٢] رحمه الله وكان يحملني إلى الشيوخ، فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني[٣]... ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حُجزة[٤] من الناس إلى جانب الرِّقَّة فأتشاغل بالعلم، ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم وتشاغلت بالتقليل من الطعام، وألزمت نفسي الصبر... وعالجت السهر، ولم أقنع بفنٍّ من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهّاد»[٥].

---

(١) «المنهل العذب الرويّ»: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) الإمام المحدث الحافظ، مفيد العراق، أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد السَلاميّ البغدادي، ولد سنة ٤٦٧، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألّف، وبَعُد صيته، وكان فصيحاً مليح القراءة، قوي العربية، جم الفضائل، توفي سنة ٥٥٠، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٦٥ ـ ٢٧١.

(٣) أي: لصغره.

(٤) أي: بعيداً عن الناس.

(٥) «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»: ٦١ ـ ٦٧ بتصرف.

وقال ـ أيضاً ـ رحمه الله تعالى: «كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج إلى طلب الحديث، وأقع على نهر عيسى[(١)]، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها وعين همتي لا ترى إلا لذّة تحصيل العلم»[(٢)].

وهذا الإمام الكبير سفيان بن عيينة يحدث عن أبيه أنه قال له عندما بلغ سنه خمس عشرة سنة: «إنه قد انقضت عنك شرائع الصّبا فاتبع الخير تكن من أهله، فجعلت وصية أبي قبلةً أميل إليها ولا أميل عنها»[(٣)].

وهكذا هي أحوال من أراد الجمع بين فضائل متعددة؛ إذ أنه أقدر على تحصيلها منذ الصغر، ولا يعني هذا أن الكبير قد فاته جمع الفضائل، ولكنه يثقل عليه، ولقد نبغ جماعات من السلف تعلموا على كبر مثل العز بن عبد السلام والقفّال وغيرهما.

ثانياً: النجابة والذكاء:

ظهور لوائح النجابة والذكاء على الشخص عامل مهم في تحقيق هذا الأمر، أمّا من علم من صفاته العقلية الخَلْقية قصوراً فلا ينبغي له الخوض في مثل هذا، فرحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

ثالثاً: توفر صفات خَلقية وخُلقية في الشخص تعينه على هذا المطلوب:

فلابد من الهمّة، وقوة الإرادة، وكثرة الحركة الفعالة المنتجة، والتفاؤل، وانشراح الصدر، وسعة الأفق، والقدرة على استجماع الفكرة، ونسيان الكدورات والأحزان، وكرم الخُلُق.

---

(١) قال المحقق: في ضواحي بغداد.

(٢) «صيد الخاطر»: ٢١٣.

(٣) المصدر السابق: ١٦٠.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «أول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمى خَلقاً، وصورة الباطن تسمى خُلُقاً، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب، ودليل [كمال] صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق، فالطبائع: العفة، والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره. والأخلاق: الكرم، والإيثار، وستر العيوب، وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل. فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص»[١].

رابعاً: توفر التوازن الذاتي:

كل الضوابط المذكورة مهمة لتحقيق التوازن بين النوازع المختلفة، ولكنها لا تصلح للتطبيق إن لم يكون عند الشخص توازن ذاتي في شخصيته، بحيث يكون مكتمل النضج العقلي والنفسي، وشخصيته مبنية على دعائم قوية وسليمة، بحيث «يجابه أعباء حياته بإرادة قوية، وعزيمة ثابتة تمكنه من حسن التكيف، والتفاعل والاستجابة، واتخاذ المواقف والاتجاهات الصحيحة حيال كل المشاكل والمعوقات والعراقيل، فلا يفقد اتزانه العقلي، ولا يختل توازنه النفسي، ولا تنهار شخصيته أمام أبسط العقبات والمصاعب»[٢].

ومما يدل على التوازن في شخصية الفرد كذلك «تحمل مسؤولياته في الحياة بقوة وصلابة، وتكوين مناعة ذاتية ضد الضعف والخَوَر،

---

(١) «صيد الخاطر»: ٢٥٥.

(٢) «أسس التربية الإسلامية»: ٨٤٢ ـ ٨٤٣.

وصون النفس من التقليد والانسياق الأعمى وراء الآخرين والتأثر بسلوكهم وأفعالهم»(١).

«وكل خلل يلحق بها [أي بالشخصية] يسبب لها الاضطراب والاهتزاز وعدم الاستقرار والثبات، وهو ما يجعلها غير قادرة على التكيف مع مشاكل الحياة، وغير مستعدة لتحمل المصاعب والشدائد، وغير مؤهلة لمجابهة المتاعب والأزمات التي تكتنف ظروف حياة الكائن البشريّ منذ مهده إلى لحده، وهو ما يؤدي بالتالي إلى أن تكون شخصيته سلبيّة هروبيّة لا نفع يرجى منها للفرد أو الجماعة أو شخصية عدوانية مدمِّرة تلحق بالفرد والجماعة معاً أفدح الأضرار»(٢).

وإن «من لوازم هذا الدين أن يكون المسلم متوازناً في أموره كلها، معتدلاً في شؤونه الخاصة والعامة، فلا غلو ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط، ولا مبالغة ولا تهاون، وإنما اعتدال وقصد وتوسط»(٣).

وشخصية الإنسان المسلم «شخصية متوازنة تعطي للجسم حقه من العناية، وللمظهر ما يستوجبه من الرعاية، ولا يلهيها هذا المظهر عن المخبر اللائق بالإنسان الذي كرمه الله وأسجد له ملائكته... بل تُعنى بما يكوّن فيها العقل الراجح والتفكير السديد، والمنطق السليم، والفهم العميق لحقائق الأشياء، والنظرة النافذة إلى لبِّ هذه الحقائق وجوهرها، ولا يعزب عنها أن الإنسان ليس مكوناً من جسم وعقل

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) «بصائر تربوية»: ٢٥.

فحسب، وإنما له قلب يخفق، وروح ترفرف، ونفس تَهْجسُ[١]، وأشواق عليا تدفعه إلى الاستعلاء على هذه الحياة المادية وحطامها، والصعود في معارج الخير والفضيلة والنور، ومن ثمّ تعنى بالتربية الروحية كما تعنى بالتربية الجسمية والعقلية سواء بسواء، في توازن محكم دقيق بحيث لا يطغى جانب من هذه الجوانب على آخر»[٢].

خامساً: الحفاظ على الوقت وعلو الهمّة:

ولابد كذلك من معرفة القواعد المفصّلة للحفاظ على الوقت، وطلب علو الهمة، والاطلاع على تجارب البارزين في هذا الجانب كابن الجوزيّ والنوويّ والسيوطيّ[٣] وغيرهم، وقد ألف في هذا رسائل عديدة[٤].

سادساً: التنظيم والترتيب:

لابد لمريد التوازن أن يكون منظماً مرتباً في شؤونه، بعيداً عن العشوائية والارتجال، يخطط ويفكر ثم ينفذ، أما من يُقْدم ولا يعرف لماذا أقدم وكيف أقدم فهذا لن يحقق شيئاً ذا بال.

ويجب ـ كذلك ـ على المخطط ألا يكون تخطيطه استجابة لنصائح الآخرين أو ردّ فعل لما يشاهده أو يسمعه، ولكن عليه أن يخطط طبقاً

---

(١) «هجس الشيء يهجس: خطر بباله، أو هو أن يحدث نفسه في صدره مثل الوَسْواس» «ترتيب القاموس المحيط»: (هـ ج س).

(٢) «شخصية المسلم»: ٣٣٤.

(٣) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الإمام الحافظ المحدث. ولد سنة ٨٤٩ بالقاهرة. وحفظ القرآن وعدة متون في صغره، وقرأ على مشايخ كثيرين وله مصنفات كثيرة جداً. توفي رحمه الله تعالى سنة ٩١١ بالقاهرة. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ١٧٤ـ١٧٨.

(٤) انظر ـ مثالاً ـ «قيمة الزمن عند العلماء» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، و«الوقت في حياة المسلم» للشيخ القرضاوي، و«الوقت عمار أو دمار» للأستاذ جاسم المطوع.

لما يريد لنفسه أن تكون، وهذه الإرادة تكوّنت ووضحت معالمها نتيجة دراسة طويلة لقدراته وما يناسبها، ودراسة الأحوال المحيطة وملاءمتها.

سابعاً: تنمية الأسس التفكيرية:

فالمرونة الفكرية أو التفكير المنطقي ـ ويقصد بهما تكوين القدرة على حسن المحاكمة والاستدلال ـ والتفكير قبل العمل، والاتساع في التفكير، والاستيعاب الكافي للمفاهيم والتصورات بحيث لا ينشأ الفكر مبتوراً أو مشوّهاً أو ناقصاً، كل هذه أمور مهمة في الأسس التفكيرية كي لا يحدث الضعف في إصدار الأحكام والقرارات[١].

ثامناً: النظرة الشاملة للحياة:

لابد لطالب هذا الأمر من «تخليص العقل من التركيز على النظرة الجزئية؛ لأن التركيز عليها يؤدي إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار، كما يؤدي إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد، ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين، سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث، أو القدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهة حاجات العصر المتجددة»[٢].

تاسعاً: معرفة الأوليات:

معرفة الأوليات وتسلسلها في الأهمية، وإعادة تصنيف المشكلات الخاصة يحمي الإنسان من التشتت وينجيه من الإحباط.

وكذلك يجب على طالب هذا الأمر أن يوازن بين هذه النوازع على

---

(١) «الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله»: ١٢٥ـ١٢٦ بتصرف يسير.

(٢) مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب «الأمة» رقم ٤: حول إعادة تشكيل العقل المسلم.

حسب الأوليات وبحسب الزمان والمكان الذي هو فيه؛ فالمسلم في فلسطين يختلف حاله ونوازعه عن المسلم في البوسنة، وهو ذو حال مميزة عن المسلم في أفريقية السوداء وهكذا. . .

فإن أذن الله له بالجهاد وتعيّن فلابد من الجهاد، وإن كان المسلم في بلد تحتاج إلى العلم الشرعي درس وعلم، أو إلى الدعوة دعا، وهكذا الأمر في بقية النوازع، هذا إن لم يستطع الجمع، أما إن استطاع فهذا الضابط مع بقية الضوابط يعينه إن شاء الله.

عاشراً: عدم الخلط بين الأمنيات والإمكانات:

فالأماني سلم للوصول إلى المطلوب ولكن بقدر، فأحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد، فمن لا يتخيل ويتمنى فكيف يطيق العيش في هذه الدنيا ذات البلاء والأكدار والأحزان والمعوقات، ولكن الضابط هو عدم الإكثار من هذه الأماني حتى لا يصاب الشخص بالمثالية ويُنعت بعدم الواقعية.

يقول الأستاذ القرضاوي واصفاً هذا الأمر وأهمية تحققه في جيل النصر المنشود: «جيل يحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض، فلا يجري وراء خيال كاذب، أو حلم فارغ، أو أماني موهومة فيسبح في غير ماء ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعي التفكير، يرنو إلى شاطئ الأحلام، ولكنه يتوقع هياج البحر وغضب الموج، ومفاجآت الأعاصير . . . لا يحرث في البحر، ولا يبذر في الصخر، ولا ينسج خيوطاً من الخيال، ولا يبني قصوراً من الرمال»(١).

(١) «جيل النصر المنشود»: ٢٢.

حادي عشر: عدم الاستعجال:

سلوك الطريق بغير استعجال، واعتماد سياسة النفَس الطويل أساس مهم في تحقيق التوازن المطلوب.

فالطريق ذو الألف من الأميال يبدأ بخطوة، وأما المتعجل الذي يريد جمع كل الفضائل ونفي الرذائل في مدة وجيزة فهذا لم يفهم السنن الكونية، ولن يطيق الصبر على الطريق الطويل.

نعم إن هناك فرقاً عظيماً بين العجلة وبين الحماس والإيجابية، فالحماس والإيجابية مطلوبان بالقدر الذي يُنفِّر به من العجلة، ولكن هناك كثير من الناس إن رآك متحمساً إيجابياً متحركاً بقوة رماك بالعجلة وعدم التأني، وما أوتي إلا من قبَل رقوده وخموله، فلو ذاق عرف.

ثاني عشر: التفرغ ولو بقدر:

لا بد من أن يكون الشخص الذي يطلب تحقيق مثل هذا الأمر متفرِّغاً له بقدر معقول، فلا يكون هذا الأمر لشخص يعمل عملين في الصباح والمساء، أو يكون ممن ابتلاه الله تعالى بأمر المال فهو يجمعه آناء الليل وأطراف النهار، أو ممن هو ملزم بعمل يومي طويل مثل من يعمل من السابعة إلى الخامسة أو من الثامنة إلى الرابعة أو ما شابههما، فمثل هذه الأعمال لا تتيح لصاحبها تحقيق مثل هذا الأمر، بل قد لا يفكر فيه إنسان ابتلي بهذا أصلاً.

وانظر إلى الصدِّيق رضي الله عنه كيف أنه عندما تسلم مهام الخلافة فرّغه الصحابة لإدارة شؤونها، ولم يقبلوا أن يعمل أي عمل قد يقتطع من

أوقاته الغالية ما تفوت به المصلحة على المسلمين، وكذلك ينبغي لأي متصدر لمهام عظيمة أن يفرغ نفسه من الأعمال الدنيوية ولو بقدر[١].

ثالث عشر: الإقلال من الاجتماع بالناس ومخالطتهم:

وهذا من أعظم أسس وضوابط تحقيق التوازن المطلوب، فمن يقضي عامة وقته مخالطاً الناس بغير هدف صحيح، ولا غرض صريح، فكيف يستطيع أن يحقق بعض ما يصبو إليه؟!

وهذا مرض اجتماعي أصاب كثيراً من الملتزمين والدعاة، فسرق الشيطان أوقاتهم الغالية، وزيّن لهم ما يصنعونه بأسباب غالبها غير صحيح.

وقد سبق لي ذكر هذا في نازع الدعوة، ولكني أعدت ذكره هنا لما له من التعلق والخصوص بهذا المبحث، ولأهمية التركيز عليه.

رابع عشر: معرفة أن النوازع يترتب بعضها على بعض:

يجب أن يعرف مريد التوازن أن النوازع المختلفة يترتب بعضها على بعض ـ غالباً ـ، فالدعوة لابد لها من علم، وثمرتها الجهاد، وضابط الجهاد هو العلم الشرعيّ، والجهاد يحسن معه توفر المال اللازم، وهكذا. . .

فمعرفة هذا تعين على طلب التوازن وترشّده.

---

(١) انظر «مطلب التفرغ» في الصفحات الآتية قريباً إن شاء الله.

مطلب في التفرغ

التفرغ أمنية كثير من العاملين الصالحين؛ إذ هو مظنّة تحقيق كثير من أهدافهم وتطلعاتهم، والتفرغ فرصة جيدة لمراجعة الإنسان أحواله، ومحاولة إقامتها على الجادّة؛ إذ دوامة الحياة اليومية قد تمنع المرء الالتفات إلى أحواله وشؤونه وإصلاحها وتقويمها.

قال ابن جُزَيْء[(١)] رحمه الله تعالى:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد
وإن مرادي صحة وفراغُ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغاً
يكون به لي في الحياة بلاغُ
ففي مثل هذا فلينافس أولو النُّهى
وحسبي من الدنيا الغَرور بلاغُ
فما العيش إلا في نعيم مؤبد
به العيش رغد والشراب يُساغُ[(٢)]

(١) محمد بن أحمد بن محمد الكلبي الغرناطي، أبو القاسم. عالم في فنون متعددة، وله تصانيف وفضل، عاكف على الاشتغال بالعلم. توفي شهيداً بطريف سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الدرر الكامنة»: ٣/ ٤٤٦-٤٤٧.

(٢) «المختار المصون»: ١/ ١٧٩.

وللتفرغ تعلق لا يخفى بموضوع الكتاب: التوازن عند التنازع؛ إذ لا يُتوصل لتحقيق التوازن المطلوب لإشباع النوازع المختلفة إلا بحظ وافر من التفرغ أو بتفرغ كامل.

والذين يمكن لهم أن يتفرّغوا للحصول على مطلوبهم عدد قليل بلا شك؛ إذ تكاليف الحياة وكثرة شواغلها ومشاكلها تمنع من التفرغ الكلي أو الجزئي، ولكنه لابد مما ليس منه بُدٌّ، وما لا يدرك جُلّه لا يترك كُلّه.

والناظر إلى أحوال الأئمة المؤثرين في التاريخ الإسلامي يجدهم متفرغين تماماً لما وفقهم الله تعالى إليه ومنقطعين لتحقيقه وإتقانه، فهؤلاء أئمة الفقه الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله جميعاً لم يؤثر عنهم إلا الانقطاع للعلم دراسة وتدريساً، وكذلك أمثالهم من الأئمة نحو النووي وابن تيمية[1] والسيوطي.. إلخ.

ولا تنس ـ أخي ـ أنني قد ذكرت أن حياتهم لم تكن كحياتنا، فلم تكن الدنيا لتأخذ منهم ما أخذت منا، وليست هممهم كهممنا.

إذا كان الأمر كذلك فهل هذا التفرغ المنشود أمر ميسور أم هو خيال طامح لا يعدو أن يكون سراباً؟

لا، بل هو أمر سهل ميسور على من يسره الله عليه، وإليك ـ أخي القارئ ـ جملةً من الإرشادات في هذا الباب تعين على تحصيل التفرغ أو بعضه:

---

(١) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية، سيرته مشهورة، توفي سنة ٨٢٨ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ـ١٧٠.

١ـ الحصول على عمل قريب من تطلعات المرء ورغباته:

كأن يكون إمامَ مسجد مثلاً، فهذا يساعده على التفوق في دراسة العلوم الشرعية، وكذلك يشبع نازع التعبد ونازع الدعوة.. إلخ.

أو يصبحَ مدرساً للعلوم الشرعية، وهذا كسابقه، ويمكن ـ توفيراً لمتطلبات العيش ـ الجمع بينهما.

أو يصبحَ صاحب مكتبه إسلامية تحقق له جملة من النوازع وتعطيه قدراً كافياً من التفرغ، وهكذا..

٢ـ الحصول على إجازة طويلة من العمل:

وهذا بوسع كل الموظفين ـ تقريباً ـ أن ينالوه؛ إذ يستطيعون الحصول على إجازة تبلغ سنة بدون راتب مما يمكنهم أن يشبعوا جملة من النوازع والمطالب.

وإن احتج أحد بضيق الحال يقال له: اجمع من راتبك بالقدر الذي يكفيك أثناء تفرغك، والقناعة كنز لا يفنى.

والأكاديميون يُسمح لهم كل عدد معين من سنوات العمل بالحصول على إجازة سنة كاملة للتفرغ للبحث.

٣ـ استبدال العمل الخفيف بالعمل الشاق:

يمكن عمل هذا بالتضحية قليلاً ببعض المزايا المادية مقابل الحصول على تفرغ نسبيّ، فإني أعرف ـ مثلاًـ طبيباً يعمل في مستشفى حكومي من الساعة الثامنة إلى الخامسة تقريباً، ويمكن له أن يعمل في مستشفى خاص من الثامنة إلى الواحدة وذلك بتنازل يسير عن قليل من المزايا المادية، فإذا أراد هذا الطبيب الالتفات إلى نوازعه ومتطلباته

وتحقيقها بدرجة مُرْضية فليس عليه إلا أن يستبدل الوظيفة الثانية بالأولى، مع مراعاة أن هذا الطبيب ليست الأمة في حاجة ماسة لطبه، فإن كان طبيباً متميزاً ماهراً فإنه لا يصح ولا ينبغي له الالتفات إلا لطبه الذي يفيد به أمته ويرفع عنها الذل والهوان ـ بعد فروض الأعيان ـ وهكذا الشأن فيمن يعمل زمانين: صباحاً ومساء فليس عليه إلا أن يترك أحدهما؛ إلا أن تدفعه ضرورة ملحة للجمع بينهما.

وكذلك حال إخواننا التجار ممن يعمل مدداً طويلة ويرغب في تحقيق بعض النوازع والتطلعات، فليس أمامه إلا أن يتريث قبل أن يعصر زمان شبابه لكسب مادي مجرد قد يزخرفه تحت دعاوى كثيرة.

٤ـ التقاعد المبكر:

كثير من موظفي الدولة يسمح لهم بالتقاعد المبكر بعد مضي عشرين سنة على بدء العمل، فيُعطى نصفَ راتبه شهرياً مما يمكنه ـ غالباً ـ من التفرغ مع دخل مادي مناسب، وهذه فرصة عظيمة لمن تناوشه نوازعُ نفسه وتلح عليه أن يستجيب لها منذ أمد بعيد، ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان ووعده له بالفقر، فالله تعالى لن يضيع عبداً أقبل عليه وضحّى من أجله.

هذه أفكار مطروحة لتحقيق التفرغ الكامل أو الجزئي.

ولكن قد يقول قائل: إن دعوتك هذه لتحقيق التفرغ قد تؤدي إلى تعطيل قسم ناشط من المجتمع، وكبح طموحه الوظيفيّ، وتتدرج بالموظف إلى التبرم من وظيفته وتصورها حجرَ عثرة في طريقه، وللإجابة على هذا أحيل القارئ إلى الفقرة التالية:

ضوابط لمسألة التفرغ:

أولاً: التفرغ ليس مطلوباً لكل أحد ولا من كل أحد:

بمعنى أن طالب التفرغ إنما يطلبه لتحقيق أمانيّ ونوازع ومطالب في نفسه لا يحققها إلا التفرغ الكلي أو الجزئي، فهو لهذا يسعى له ويجاهد للحصول عليه، ثم إنه لا يسعى لهذا إلا بعد التأكد من أن لديه قدرةً مالية يُسيّر بها شؤونه ومتطلبات حياته.

والتفرغ ليس مهماً إلا لعدد محدود ذوي مواهبَ وقدرات واضحة بارزة، بحيث يكون التفرغ لأمثالهم على غاية من الأهمية والإيجابية.

ولضرب المثل على أهمية التفرغ لبعض الناس فإني أذكر حال واحد من إخواني يعمل في وظيفة إدارية هامشيّة منذ عشرين سنة، وعمله هذا يمكن أن يقوم به موظف مبتدئ، ولأخي هذا طموحاتٌ كثيرة وتشتعل في نفسه نوازع متعددة لا يحققها إلا تفرغ كامل، وهو قد بلغ الأربعين، فصرت أبين له أهمية أن يحصل على تقاعد مبكر ويتخلصَ من هذه الوظيفة التي سلبته أثمن أوقاته وزهرة شبابه، ولكنه متردد إلى الآن على الرغم من وضوح الفائدة في تقاعده المبكر، والله أعلم.

فإذاً لا يكون التفرغ لكل أحد، بل لأمثال أخي هذا ومن شاكله.

ثانياً: وجوب تنسيق زمن التفرغ وترتيبه حتى تكمل الاستفادة منه:

إذ الحاصل على التفرغ الكامل أو الجزئي لابد له من أن يضع لنفسه أهدافاً محددة لتحقيقها زمن تفرغه، فلا تضيع منه هذه الفرصة الثمينة هباءً، فكم من موظف تفرغ للدراسة ثم لم يُوفّق، وكم من مضيع لتفرغه في عمل مفضول ليس من ورائه طائل.

ثالثاً: وجوب التنسيق بين مريدي التفرغ:

فلا يتفرغ اثنان في تخصص واحد إلا لحاجة ماسة، ولا يتفرغ اثنان لتأدية عمل معين يمكن أن يؤديه متفرغ واحد.

وينبغي أن يُحرص على «العمل بجد على أن يتفرغ عدد من الكفايات في المواقع الاستراتيجية الهامة، وخصوصاً في مجال العلم والفكر، ومجال التربية والتكوين، ومجال الدعوة والإعلام...»[(١)].

«ومن الضروري أن يُراعى عند التفرغ التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات، ولا يقع تركيز في جانب على حساب جانب أو جوانب أخرى، فلا يوجد إسراف إلا بجانبه حق مضيع»[(٢)].

رابعاً: ضبط الإنفاق الماديّ على مريدي التفرغ:

الإنفاق على مريدي التفرغ من المهمات التي يشجع القادرون عليها؛ إذ أن التفرغ يعود على الفكر الإسلامي بفوائد إيجابية مهمة.

«ولا يجوز أن يكون المال عقبة في سبيل هذه الغاية، فإن بذل المال لذلك من أهم ما يتقرب به إلى الله، ويمكن أن يصرف فيه من أموال الزكوات والصدقات والأوقات والوصايا وغيرها... ولا يجوز للعاملين المخلصين أن يستنكفوا من أخذ الأجر الكافي الملائم لأمثالهم لو عملوا في أي مجال آخر حتى يستمروا في العمل ولا يتبرموا به، المهم هو العدل في غير إسراف ولا تقتير»[(٣)].

---

(١) «أولويات الحركة الإسلامية»: ١٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ١٩٣.

وفي نهاية هذا المطلب أريد أن أبين أن التفرغ لابد أن يُضحى له ببعض المزايا المادية، والقناعةُ باليسير أمر مهم في هذا الباب، والعائد من التفرغ على الشخص أهم بكثير مما يمكن أن يفقده حال تفرغه، والله أعلم.

مطلب في الترويح والاستجمام

وكلاهما بمعنى طلب الراحة للجسد والفؤاد، ويقال: «إني لأستجم قلبي بشيء من اللهو ـ أي المباح ـ لأقْوى به على الحق»[(١)].

ولما كانت النوازع المذكورة سابقاً كلها تُعدّ من الحق وأخذ النفس بالشدة وقسرها على مكروهاتها، لما كان الأمر كذلك كان لابد من ذكر ما تستريح إليه النفس وينشده الجسد مما هو من اللهو المباح أو من غيره.

«وليس معنى هذا أن يسرف الناس في اللهو ويُفْرطوا في المزح، ولكن المقصود ألا يعيش الناس في جو مملوء بالكآبة مشحون بالمضايقات حتى تختفي فيه معالم الفرح والبهجة، بل ينبغي كلما أحس الناس بذلك أن يلجؤوا إلى اللهو المباح الذي لا يخلّ بالمروءة ولا يخدش الكرامة، ويخرج بصاحبه عن حياة الجد والعمل الدائب النافع»[(٢)].

فوائد الترويح وعلاقته بالمبحث:

والترويح يحقق عدداً من الأمور تخدم تحقيق النوازع المذكورة سابقاً، منها:

---

(١) راجع «لسان العرب»: (ج م م) و(ر و ح).
(٢) «الترويح في المجتمع المسلم»: ٧.

أولاً: سدُّ حاجة الأهل والأولاد من جلوسهم مع عائلهم:

إذ المرأة تحتاج للجلوس مع زوجها بعض الوقت، والأولاد محتاجون للجلوس مع والدهم بعض الوقت أيضاً، فالترويح المشترك مع الأهل والأولاد محقق لهذا الجانب الاجتماعي المهم في حياة الإنسان.

ويمكن أن يجمع المرء عدداً من أهله أيضاً فيشركهم معه في ترويحه كأبيه وأمه وإخوته، فيقضي لهم حقاً ما كان يجد له وقتاً.

وإذا روّح المرء نفسه بهذا ستر نفسه عن كثير من السهام اللائمة، والله أعلم.

وقد كان النبي ﷺ يجلس بين نسائه فيشهد غيرتهن ويضحك لها، وكان يمكّن عائشة من رؤية الحبشة وهم يلعبون، وكان يحمل أحفاده ويُسرّ برؤيتهم، وهذا منه تعليم لنا ﷺ.

ثانياً: سدُّ حاجة الجسد من الحركة اللازمة له:

حيث إن الترويح أنواع، فمنه العقلي، ومنه الجسدي، ومنه ما هو جامع بين الاثنين، والترويح الجسدي مهم لتحقيق حاجة الجسم من الحركة اللازمة لإقامته واستمرار نشاطه.

ورسولنا ﷺ قد سابق عائشة مرتين، وكان ﷺ يخرج إلى الرمي ويحث الصحابة عليه.

ثالثاً: الترويح عن النفس مدعاة لاستزادتها من الخير:

حيث إن طبيعة الإنسان الجاد ذي الأهداف الخيِّرة أنه متى ما استراح إلى شيء من اللهو المباح، فإنه يشعر أثناءه بعظم التبعة الملقاة

عليه وصعوبة تحقيقها إن لم يَهْرعْ إلى ما كان عليه قبل لهوه، ويحث مطاياه على السير في ركاب الخير.

هذا وليُعلم أن الترويح ليس له حدٌّ معين، بل إن شعر المرء أنه قضى حاجته منه فهذا حدّه.

والترويح ليس له ضابط إلا الحل والحرمة، وما يخرم المروءة، أمّا غير ذلك فلا، والله أعلم.

وإذا كان الأمر كذلك فالترويح ميادينه كثيرة جداً، تتنوع حسَب ميول الشخص وما يهواه، والعاقل السعيد من روّح عن نفسه وأهله بنية التقوي على العبادة، وفي الميادين التي تخدم أهدافه وما يتطلع إليه، والله الموفق.

تنبيه مهم

لتعلم ـ أخي القارئ ـ أن الترويح والمستراحَ إليه أمر نسبيّ يختلف من شخص لآخر، فرُبّ شخص يستريح إلى قراءة القرآن وحفظه، وآخر يستريح إلى قراءة كتب السَّمر، وثالث يفزع إلى إخوانه في الله فيستريح إليهم، ورابعٌ راحته في التسبيح والتهليل والتكبير والاستغفار، وهكذا...

إذاً ليس من الضروريّ أن يكون الشيء المستراحُ إليه والمستجمُّ به لهواً أو مَحْضَ تضييع للأوقات، بل يمكن أن يكون في الاسترواح فائدةٌ عظيمة.

وانظر إلى ابن عقيل الحنبلي(١) رحمه الله تعالى صاحب «الفنون» كيف يُروِّح عن نفسه:

«إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح»(٢).

هكذا كان أئمتنا، وهكذا نرجو أن نكون، إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي، المتكلم، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١، وكان بحر معارف وكنز فضائل لكنه حصل له خلط في باب الصفات لجلوسه إلى بعض المعتزلة، توفي سنة ٥١٣، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٤٤٣ ـ ٤٥١.

(٢) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

خاتمة

ثم في نهاية هذا المبحث إليك ـ أخي ـ هذه العبارات الذهبية من الحافظ الذهبي تبين لك أن التوازن بين النوازع هو طريق الصالحين وسمت المتقين:

قال الذهبي رحمه الله تعالى: «فو الله إن ترتيل سبع القرآن في تهجد قيام الليل، مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار، والصدقة، وصلة الرحم، والتواضع والإخلاص في جميع ذلك، لشغل(١) عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين، وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب»(٢).

وقال الأستاذ عبد الكريم زيدان فيما يُعدّ مكمّلاً لكلام الإمام الذهبي: «المثالية في الإسلام تتصف بالشمول؛ لأن الإسلام يريد من

---

(١) هذا هو خبر إن الواردة في افتتاح النقل.

(٢) «نزهة الفضلاء» ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

المسلم أن يبلغ الكمال المقدر له بتناسق وفي جميع شؤونه، فلا يُقبل على جانب واحد أو عدة جوانب ويبلغ فيها المستوى العالي من الكمال، بينما يهمل الجوانب الأخرى حتى ينزل فيها إلى دون المستوى المطلوب، إن مثله مثل من يقوي يديه ويترك سائر أعضائه رخوة هزيلة ضعيفة.

وعلى هذا الأساس فهم الصحابة الكرام مثالية الإسلام، فلم تأسرهم عبادة، ولم تقيدهم عادة، وإنما تقلّبوا في جميع العبادات والأحوال، وبلغوا فيها المستوى العالي من الكمال، فلم يحبسوا أنفسهم في مكان، ولا على نوع من العبادة، ولا على نمط معين من الأعمال، وإنما باشروا الجميع، فعند الصلاة كانوا في المسجد يصلون، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين أو متعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال»[١].




---

(١) «أصول الدعوة»: ٧٠.

عـــــزاء

ثم ـ أخي ـ إن لم تستطع بعد كل هذه الضوابط والأسس أن تحوز الفضائل، وتجمع بين النوازع؛ فعلِّل النفس بحديث ابن الجوزي حيث يقول:

«ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها فهم يبالغون في كل علم، ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون»(١).

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا البحث في ميزان أعمالي يوم ألقاه، وأن ينفع به عباده، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

(١) «صيد الخاطر»: ٢٤٠.

فهرس المصادر والمراجع

«القرآن الكريم».

١ ـ **«آفاق بلا حدود»**: الدكتور محمد التكريتي. نشر دار المنطلق. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢ ـ **«أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية»**: د. عبد الحميد الصيد الزنتاني. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس. ١٩٨٤م.

٣ ـ **«أصول الدعوة»**: الأستاذ عبد الكريم زيدان. نشر مكتبة المنار الإسلامية. الطبعة الثالثة.

٤ ـ **«الأهداف الرئيسية للدعاة إلى الله»**: إصدار لجنة البحوث، مكتبة دار الدعوة. الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٥ ـ **«أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة»**: الدكتور يوسف القرضاوي. نشر مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى.

٦ ـ **«بصائر تربوية»**: مراجعة د. عمر الأشقر. دار النفائس. الأردن. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٧ ـ **«تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذيّ»**: الإمام محمد المباركفوريّ. دار الفكر. ضبط عبد الرحمن عثمان.

٨ ـ «**ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**»: ترتيب الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٣٩٩هـ.

٩ ـ «**تهذيب مدارج السالكين**»: الإمام ابن القيم. تهذيب الأستاذ عبد المنعم العزي. نشر دار المطبوعات الحديثة. جدة.

١٠ ـ «**جيل النصر المنشود**»: الأستاذ يوسف القرضاوي.

١١ ـ «**حول إعادة تشكيل العقل المسلم**»: د. عماد الدين خليل. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. الطبعة الأولى.

١٢ ـ «**الرائد**»: مجلة الطلائع الإسلامية. العدد ١٢٩.

١٣ ـ «**شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسّنة**»: د. محمد علي الهاشمي. دار البشائر الإسلامية. بيروت. الطبعة ١٤٠٠هـ.

١٤ ـ «**صحيح البخاري**»: تحقيق الأستاذ أحمد شاكر. دار الجيل. بيروت.

١٥ ـ «**صيد الخاطر**»: الإمام ابن الجوزي. تحقيق الأستاذين علي وناجي الطنطاوي. دار الفكر. دمشق. الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.

١٦ ـ «**لسان العرب**»: الإمام أبو الفضل محمد بن منظور الأفريقي. دار صادر. بيروت.

١٧ ـ «**لفتة الكبد إلى نصيحة الولد**»: الإمام ابن الجوزي، مكتبة التراث الإسلامي. مصر.

١٨ ـ «**المختار المصون من أعلام القرون**»: المؤلف، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٩ ـ «**المصباح المنير**»: العلامة أحمد بن محمد الفيومي، مكتبة لبنان. بيروت، ١٩٨٧م.

٢٠ ـ «**معجم مقاييس اللغة**»: الإمام أحمد بن فارس. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. مطبعة البابي الحلبي. القاهرة. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٢١ ـ «**الممتع في علم الشعر وعمله**»: عبد الكريم النهشلي. تحقيق الدكتور منجي الكعبي. طبع دار الكتب العربية. ليبيا ـ تونس. سنة ١٣٩٨هـ.

٢٢ ـ «**المنهل العذب الرويّ في ترجمة قطب الأولياء النووي**»: الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي. تحقيق الدكتور محمد الخطراويّ. مكتبة دار التراث. المدينة المنورة. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٣ ـ «**نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**»: المؤلف. دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الثانية. ١٤١٥هـ.